

ܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ

ܕܡܠܦܢܐ ܓܘܪܓܝܣ ܒܪ ܐܢܛܘܢ ܕܒܝܬ ܟܝܪܐܙ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܟܠ ܐܢܫ ܕܫܐܠ ܠܗ ܠܟܬܒܐ ܗܢܐ ܡܢ ܒܝܬ ܐܘܨܪܐ
ܐܘ ܦܣܩ ܡܢܗ ܡܕܡ ܢܗܘܐ ܡܫܐܠܐ ܒܝܬ ܕܝܢܐ
ܘܕܚܝܠܐ ܡܢ ܒܝܬ ܡܠܟܘܬܐ ܘܫܒܪܐ ܕܢܣܒ ܢܩܠ ܐܘ
ܠܗ ܠܗ ܫܒܪܐ ܘܠܐ ܢܫܒܘܩ ܢܗܘܐ ܠܗ ܫܒܪܐ ܒܝܬ
ܡܫܝܚܘܬܐ ܕܘܡܐ ܕܢܗܦܘܟ ܠܗ ܠܕܘܟܬܗ ܀

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

الممالك الآرامية
بالعربي

ܡܠܟܘ̈ܬܐ
ܕܐܪ̈ܡܝܐ

بقلم

المطران غريغوريوس صليبا شمعون

رئيس اساقفة الموصل



سلسلة يصدرها

المطران يوحنا ابراهيم
متروبوليت حلب للسريان

مطرانية السريان الارثوذكس ــ حلب (سورية) هاتف ٤٤٤٦٦

المقدّمة

هذه صفحة مشرقة ، من تاريخ سورية وما بين النهرين ، الموغل في القدم والعراقة ، والذي صنعته شعوب متعدّدة ، ينتمي معظمها الى أسرة واحدة ، ومنها الآراميون الذين لعبوا دورهم البارز في نمو حضارة المنطقة ، لفترة تجاوزت الخمسة قرون .

وهذه الصفحة التي أقدّمها الى القارىء الكريم ، إنْ هي الا حلقةٌ صغيرة في سلسلة تاريخ الآراميين ، الذين لم يكن لهم حظّ في كتابة تاريخهم ، كما كان لغيرهم من شعوب المنطقة ، وذلك بسبب ندرة ما اكتشف حتى الآن من آثارهم ومدوّناتهم . وإني لعلى يقين ، من ان هذا العمل ينقصه الشيء الكثير ، نظراً الى ضآلة المصادر من جهة ، وعدم إمكانية الاطلاع على بعض المصادر

الاجنبية من جهـــة أخرى . ولولا الرغبة الملحّـة التي أبداها نيافة الأخ المطران يوحنا ابراهيم متروبوليت حلب في طبعه ، لتريثت في ذلك بانتظار المزيد من المصادر .

ولا بدّ من أن أشير الى انّ معظم الممالك الآرامية لم تكن ممالك بالمعنى المعروف ، بل كانت قبائل كبيرة او مشيخات ، يتزعمها شيخها ويحكم باسم ملك . هذا وآمل ان تكون هـذه الصفحات قد ألقت بعض الضـــوء على جانب من تاريخ الآراميين .

غريغوريوس



عرض تاريخي عام عن الآراميين

الآراميون من مجموعة الشعوب التي أطلق عليها مصطلح « الشعوب السامية » استناداً الى ما جاء في سفر التكوين (١) واعتباراً من ان هذه الشعوب منحدرة من سام بن نوح ، وآرام هو أحد ابناء سام ، واليه نُسبت احدى القبائل الآرامية المتعدّدة . ثم تغلّبت هذه التسمية على تسميات القبائل الارامية الاخرى مثل احلامو ، عبيرو ، وسوتو . وربما كان ذلك في القرن الثاني عشر ق . م حيث ورد في أخبار الملك الاشوري تغلاثفلاصر الاول اسم قبائل (أي اكثر من قبيلة) على هيئة « آرامي » (٢) . غير أن وجود اسم آرام يرجع ولا شك الى ما قبل هذا التاريخ ، حيث وردت هذه التسمية في كتابة مسمارية ترجع الى عهد الملك الاكدي نرام-سين (٢٢٦٠ - ٢٢٢٣ ق . م) . كما وردت في كتابة اخرى إشارة الى دويلة باسم « آرام » في

(١) « بنو سام، عيلام وآشور وارفكشاد ولود وآرام» (١٠:٢٢)

(٢) مجلة التراث الشعبي العراقية ، حزيران ١٩٧١ مقال الاستاذ طه باقر .

جنوبي العراق (١) . إلا ان الاراميين لم يظهروا كشعب ذي كيان وسيادة على مسرح التاريخ بصورة واضحة قبل القرن الخامس عشر ق . م . أما ظهورهم الفعلي فقد كان ما بين القرنين الثاني والحادي عشر ق . م حيث ازدهر نشاطهم السياسي على أثر التضعضع الذي هزّ كيان الامبراطورية الاشورية بعد عهد ملكها تغلاثفلاصر الاول .

موطن الاراميين الام

لقد تعدّدت آراء الباحثين والمؤرخين وتضاربت مذاهبهم في تحديدهم لموطن الاراميين الأم ، نظراً الى ما يكتنف تاريخهم من غموض ، بسبب ضآلة المصادر والوثائق التاريخية عنهم . لذا كان الاجتهاد الشخصي القدح المعلّى في هذا المضمار ، شأنه في ذلك شأن كثير من المسائل التاريخية التي تعوزها قوة الحجة لافتقارها الى البيّنات والوثائق الصريحة . فقد جعل قوم موطن الاراميين شمال افريقية ، وغيرهم آسيا الصغرى . إلاّ ان هذه الآراء لا تتعدّى كونها مجرّد اجتهاد أو حدس ، ربما استند أصحابها

---

(١) العرب واليهود في التاريخ للدكتور احمد سوسه ص ٥٤ ومجلة العربي عدد ٨٣ ص ١٢٤ .

الى إشارات عابرة أو ملامح غير ذات شأن . الا ان الرأي المعوّل عليه ، هو انهم ابناء الجزيرة العربية . وهذا أمر يكاد يجمع عليه ثقات المؤرخين ، لكنهم اختلفوا في تحديد المنطقة . أهي جنوب الجزيرة العربية أم شمالها أم رقعة أخرى منها ؟ . ذلك بأن قوماً يذهبون الى ان الاراميين جاءوا من جنوب الجزيرة العربية في احدى الموجات النازحة منها واستوطنوا المنطقة المعروفة بالهلال الخصيب . وهناك مَن يقول ان موطنهم الام هو أصلاً شمال الجزيرة العربية . وقد يكون هذا الرأي أقرب الى الحقيقة والصواب لوجوه منها :

اولاً : ان أول اشارة لتسمية « آرام » جاءت في مدوّنات اكدية القريبة من هذه المنطقة كما أسلفنا .

ثانياً : انّ الاراميين لدى تحركهم وهجرهم وطنهم الام احتلوا اولاً بلاد الشام ثم انتشروا في ربوعها نظراً الى قربها من موطنهم .

ثالثاً : وجود مملكة آرامية على شاطىء فرات الاوسط بالقرب من المنطقة المحدّدة كموطن الاراميين الام ، حيث

يمكن اعتبارها من القبائل الارامية التي آثرت البقاء على مقربة من موطنها .

رابعاً : انتشار عدد غير يسير من القبائل الارامية على امتداد الفرات حتى الخليج العربي .

فمن هنا نستدل أن الاراميين قصدوا لدى هجرتهم الاماكن القريبة منهم أولاً ، حيث لا نجد أثراً للقبائل الارامية في مناطق بعيدة عن هذا الموقع ، ما خلا نفر يسير وصلوا الى مصر عن طريق سيناء .

وفي العهد القديم من الكتاب المقدس ، نجد تلميحاً الى موطن الاراميين . حيث جاء في سفر عاموس النبي قوله تعالى « ألم اخرج اسرائيل من مصر والفلسطينيين من كفتور وآرام من قير »(١) . فمن هذا النص يبدو ان الاراميين خرجوا من منطقة قير . وهذه المنطقة ليست ولا شك بلاد الشام التي قطنها الاراميون فيما بعد ، ذلك بأننا نقرأ في سفر عاموس ايضاً ان الله هدّد شعب آرام

(١ عاموس ١٩ : ٢ .

في دمشق بالجلاء عن قير (١) . ومما جاء في سفر الملوك الثاني (٢) يبدو ان تغلاثفلاصر الثالث ملك آشور سبى آرامي دمشق الى قير التي كانت ولا شك ضمن الامبراطورية الآشورية . لأن الآشوريين اعتادوا ان يسبوا الاراميين الى بلادهم او المناطق التي تحت سيطرتهم . لهذا فان المؤرخين يرجّحون ان تكون قير في الجزء الشمالي الغربي من العراق (٣) .

وبناءً على ما تقدّم يمكن القول بأن موطن الاراميين الام يقع في المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية أي جنوبي الصحراء السورية المعروفة ببادية الشام ، وهي نفس المنطقة التي سمّيت في العهد الجديد بـ « العربية » وغربي الفرات الاوسط وشرقي فلسطين . وقد يقوم اعتراض على هـــذا الرأي على اعتبار ان هذه المنطقة هي صحراوية جرداء لا يتسنى لأي قوم كان العيش فيها حقبة طويلة من الزمن . وإزاء ذلك نقول : ان هذه المنطقة من الجزيرة العربية لم

---

(١) عاموس ١ : ٥ .

(٢) عاموس ١٦ : ٩ .

(٣) انظر قاموس الكتاب المقدس ص ٧٥٢ .

تكن في الماضي قاحلة كما هي الآن ، بل كانت خصبة تتوفر فيها جميع مقوّمات العيش الصالح والحياة الهادئة (١) .

مصادر تاريخ الاراميين

قلنا ان شحّة المصادر التاريخية عن الآراميين جعلت الغموض يكتنف تاريخهم وحالت دون الوقوف على نمط حياتهم وتتبّع مراحل مسيرتهم التاريخية بصورة دقيقة كافية . ومع ذلك فان تاريخهم لم يخلُ من بعض المصادر الهامة التي كشفت عن جانب كبير من حياتهم وبخاصة الجانب السياسي منها . ولعلّ أهمّ مصدر نستقي منه أخبار الآراميين بشكل صحيح ، هو العهد القديم ، ولئن كان معظم ما ورد فيه يدور حول مملكة آرام دمشق وبعض الدويلات الآرامية الاخرى التي كانت تربطها بالعبرانيين علاقات سياسية واقتصادية . والى جانب العهد القديم هنالك كتابات ورُقُم مسمارية خلّفها ملوك الآشوريين ، وهي ولئن تتحدّث عن غزوات ملوك آشور وتمجّد انتصاراتهم ، إلا انها تلقي في الوقت نفسه ضوءاً على صفحة من تاريخ الآراميين الذي ارتبط فيما بعد بتاريخ الآشوريين ارتباطاً وثيقاً ، وذلك على أثر الحروب التي دارت رحاها بينهما ، وما أسفرت عنه من جلاء عدد كبير

من الآراميين الى بلاد آشور ، وتوطين آشوريين في بلاد آرام . أما المصدر الآخر لتاريخ الآراميين فهو الكتابات والمدوّنات التي خلّفها الآراميون أنفسهم وبلغتهم وكتاباتهم، وهذه وإن كانت ضئيلة نسبياً ، فهي الاخري تلقي أضواء لامعة على جوانب هامة من تاريخهم وازدهارهم الاقتصادي والثقافي .

هجرة الاراميين

لم يكن الاراميون في بادىء امرهم سوى قبائل رحّل تجوب مختلف المناطق سعياً وراء الكلأ وموارد الرزق ، حتى اذا ما هبّ عليهم نسيم الحضارة ، وقد جاءهم من وادي الرافدين ، أخذوا يزحفون نحو الشمال فوصلوا بلاد الشام واحتلّوها كما نوّهنا اعلاه ، فيما اتجه قسم آخر منهم نحو الشمال الشرقي ، ثم تغلغلوا في أعماق سورية حتى وصلت بعض قبائلهم الى أقصى الشمال ، فاستقرّوا هناك وفي أعالي ما بين النهرين ، وأخذوا يعملون في الزراعة ، في حين زحفت قلة منهم الى مصر عن طريق صحراء سورية وبرية سيناء ، وعرفت هناك باسم « سوتو » أي الرحّل ، كما نزح قسم آخر من قبائلهم الى بلاد اكد (جنوبي العراق) حيث أسّسوا لهم دويلات صغيرة مبعثرة هنا وهناك ، وصار

---

(١) الحيرة ليوسف غنيمة ص ٧ عن المستشرق كنج .

لهم فيما بعد شأن يذكر في تاريخ تلك المنطقـة . كما اتجه قسم آخر من قبائلهم نحو الشمال الشرقي . وقد جاء هـذا التوسع الجغرافي نتيجة لفتوحاتهم والغزوات الـتي شنّوهـا ضدّ الشعوب الـــتي قطنت البـلاد قبلهـم كالاموريين (١) والميتانيين (٢) والحثيين ، وفرضوا سيطرتهم عليهم وأسّسوا

---

(١) الاموريون ، قوم من سلالة كنعان بن حام بن نوح (تكوين ١٠ : ١٦) كانوا يتكلمون لغة سامية ، سكنوا سورية منـذ الالف الثالث ق . م ونزحت بعض بطونهم الى العراق واستوطنوا منطقـة بابل حيث أسسوا مملكة بابـل الاولى التي أنجبت حمورابي المشترع الشهـير . وكانت عاصمتهم في سورية مدينـة ماري الواقعـة على الفرات الاوسط وتعرف اليوم باسم « تل الحريري » . وقد اكتشف فيها عام ١٩٣٤ عدد كبير من اللوحات الفخارية تتضمن كتابات بالخط المسماري . وأسدل الستار على تاريخهم في اعقاب نهضة الاراميين .

(٢) الميتانيون ، قوم من العنصر الآري ، جاءوا سورية من منطقة وان في الشمال في القرن الخامس عشر ق . م وأسسوا مملكة في الجزيرة السورية ، ثم امتدوا بفتوحاتهم الى سورية الشمالية وما بين النهرين والبحر المتوسط غرباً . وفي الجنوب وصلوا حتى بابل ، وفي الشرق امتدوا الى منطقة كركوك . وتاريخهم كتاريخ الآراميين يكتنفه الغموض ، الا ان علاقاتهم مع المصريين كانت متينة كما تفيد الرسائل المتبادلة بين الطرفين . وكانت عاصمتـهم « تايدي » الـتي دمرها اداد نيراري ملك اشور سنة ١٣٠٠ ق . م وبزوالها انقرضت مملكتهم وقامت على انقاضهـا مملـكة باخياني الارامية .

دويلات صغيرة على أنقاض ممالكهم . ومما تجدر الاشـارة اليه ، ان الاراميين لاقوا صعوبات جمّة ومقاومات عنيفـة في أثناء غزواتهم هذه . الاّ ان الظـروف واتتهم وخلقت عوامل كثيرة أسهمت في إخضاعهم تلك الشعوب ، منهـا اضطراب حبل الامن الداخلي فيها ، والحروب الدائرة بينها وبين الشعوب المجاورة ، كالحروب التي شنّها الاشوريون آنذاك ضدّ كل من الميتانيين والحثيين ، فاستغلّ الاراميون سيادة الفوضى بين هذه الاقوام فأخضعوها وسيطروا عليها . ولكن بالرغم من ذلك فان الارامـيين لم يتمكّنوا من السيطرة التامة على هذه البلاد إلاّ بعد مرور وقت طويل أي حوالي القرن الحادي عشر ق . م . ذلك بأن شعوبهـا كانت قد سبقتهم في ميدان الحضارة بأشواط . الا انهم سرعان ما اقتبسوا تلك الحضارة وأضافوا اليها بعض الشيء ، وفرضوا لغتهم على المنطقة بأسرها ، وبذلك رسخت اقدامهم وغدوا سادة البلاد نحو خمسة قرون متواصلة ، ثم اتسعت منطقة نفوذهم حتى امتدت الى ما بين بلاد ارارطو (الارمن) شمالاً وجبال امانوس وطوروس وحوض العاصي والايطـاني غرباً ، والصحراء السورية جنوباً ، وبلاد آشور شرقاً .

قبائل أحلامو الارامية

ان طلائع القبائل الارامية الزاحفة نحو الشام عرفت أولاً باسم « أحلامو » وهي تعني الرفاق (١) وقد وردت هذه التسمية في رسائل تل العمارنة المتبادلة ما بين ملوك الميتانيين وملوك مصر في القرنين الخامس والرابع عشر ق.م حيث تحدثت عن « الضجة التي أحدثها الأحلامو في المنطقة » . وفي أواخر القرن الرابع عشر ق.م كنا نرى صراعاً عنيفاً ما بين الاشوريين وأحلامو الغزاة ، إذ ان الأخيرين كانوا يشكلون خطراً على مسالك الطرق كما تفيد رسالة حتوشيل ملك الحثيين الى ملك بابل سنة ١٢٧٥ ق.م حيث ورد فيها ان « الاحلامو قد جعلوا الطرق بين المملكتين حافلة بالمخاطر » (٢) . وتشير احدى كتابات تغلاثفلاصر الاولى الى الحوادث الخطيرة التي وقعت بينه وبين أحلامو

---

(١) المجلة البطريركية الدمشقية . السنة ٤ ص ٤٩٥ مقال الاستاذ بشير زهدي . وقد رأى الاستاذ طه باقر انها تعني « الاحلاف » وقيل انها تعني « الرحل » شأنها في ذلك شأن كلمة « سوتو » التي اطلقت على القبائل الارامية في مصر استناداً الى الوثائق الاشورية .

(٢) الاراميون لدبونت سومر . ترجمة الاب البير ابونا ، نشر في مجلة سومر العراقية . مج ١٩ سنة ١٩٦٣ .

الذين ينعتهم بأعداء إلهه ، إذ يقول « اني بحماية سيدي إله آشور أخذت عرباتي وجنودي البواسل ، وتوجّهت شطر الصحراء وسرت ضد أحلامو ـ الارامين أعداء سيدي إله آشور ، وقد دمرت في يوم واحد من بلاد سوحي (١) الى مدينة كركميش الواقعة في بلاد الحثيين ، فقتلتهم وأخذت غنائمهم وأموالهم وخيراتهم الطائلة ، أما بقية عساكرهم الذين قابلوا أسلحة إله آشور المهولة فقد هربوا واجتازوا نهر الفرات (٢) .

والأحلامو في الوثائق الاشورية ، غزاة من العنف بمكان ، لا همّ لهم سوى ان يعيثوا في الارض فساداً . إلاّ انه لا يمكن الركون كلية الى هذه الوثائق فينظر الى الارامين وكأنهم مجرّد غزاة . اذ ان الاشوريين اعتبروهم أعداءهم الالداء لأنهم (الاراميون) كانوا يقضّون مضاجعهم ، فيضطر الاشوريون الى مطاردتهم . حتى ان تغلاثفلاصر الثالث اضطر الى ان يعبر الفرات في أثرهم ثماني وعشرين مرة من أجل القضاء عليهم ، لأجل كل ذلك نعتتهم الوثائق

---

(١) مملكة آرامية على شاطىء الفرات الاوسط .
(٢) الآراميون .

الاشورية بالقسوة والعنف ، في حين انهـم كانوا يكافحون من اجل الاستقرار والحياة الافضل ، ويتنازعون في سبيل بقائهم ويضحون لكسب حريتهم . وهذا شأن كل الشعوب المقهورة التي تنشد حريتها عبر الاجيال ، ولا تزال حتى اليوم الشعوب المسلوبة الحرية والكرامة والتي تعمـل من أجـل حريتها وكسب حقوقها تعتبر في نظر أعدائها متمرّدة مخربة مثيرة للشغب والاضطرابات ، في حين ان عملها لا يعدو كونه تجسيداً لمشاعر أبنائها وتعبيراً عن رغبتهـم في الحرية والكرامة لا غير . وعلى هذا الاعتبـار كان الاراميون يثورون ضد الاشوريين بين الفينة والاخرى ، دفعاً للضيم ودفاعاً عن استقلالهم ، مدللين بذلك على انهم كانوا ذوي بأس وإباء لا يركنون للخنوع والاستسلام .

نشاط الاراميين السياسي

غير ان نشاط الاراميين السياسي لم يبلغ ذروته إلاّ في أواخر القرن الحادي عشر ق . م وأوائل القرن العاشر ، حيث تمكّنوا آنذاك من الاستقرار التام ، وترسيخ أقدامهم في سائر أنحاء المنطقة التي عرفت ببلاد آرام أو « آرامو » أو « ريمـــو » أو « مات اريمي » كما ورد في الوثائق

الأبجدية العربية الحالية	ا ب ج د ه و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت
الأبجدية العبرية القديمة	[illegible]
الأبجدية الآرامية القديمة	[illegible]
الأبجدية الفينيقية القديمة	[illegible]
الأبجدية السامية الجنوبية	[illegible]
الأبجدية السامية الشمالية الأولى	[illegible]
الأبجدية السريانية الأسطرنجيلية	[illegible]

مُقارنة بين الأبجديات القديمة

المكتشفة في بابل وآشور والمدوّنة بالمسمارية . وما ان استتبّ لهم الامن وتمّ استقرارهم على الوجه الافضل ، حتى اخذوا يؤسسون لهم دويلات ، ولكن متفرقة ومستقلة الواحدة عن الاخرى (١) . وقد استطاعت هذه الدويلات ان تقف حاجزاً منيعاً امام توسع نفوذ الاشوريين وتسربهم الى البلاد المجاورة عبر بلادهم ، ردحاً من الزمن ، الامر الذي حدا الاشوريين الى الانتقام منهم والاغارة عليهم مرة تلو الاخرى ، حتى تمّ لهم اخضاعهم بفضل جيوشهم المنظمة والمجهزة بافضل المعدات الحربية اولا ، وبسبب انفصام عرى الوحدة بين الدويلات الارامية ثانياً . الا ان الاراميين لم يفتهم ان يتحالفوا احياناً ضد الغزوات الاشورية ، سواء اكان ذلك مع بعضهم بعض ام مع جيرانهم كالحثيين والعبرانيين والعمونيين (٢) وهذا ما ساعد

---

(١) ان معظم هذه الدويلات اطلق عليها اسم القبيلة المؤسسة كما هو واضح من اسمائها المسبقة بلفظة « بيث » والتي تعني بالعربية « آل » .

(٢) العمونيون ، وهم من سلالة بني عمي بن لوط ابن اخي ابراهيم الخليل ، سكنوا شرقي نهر الاردن وكانوا على صراع مستمر مع الاموريين كما ان علاقاتهم مع العبرانيين كانت غير مرضية . عاصمتهم ربة عمون التي تقوم اليوم على انقاضها مدينة عمان . اخذوا بالانحطاط التدريجي حتى انتهى تاريخهم السياسي في العهد الروماني حيث اندمجوا في سكان شرقي الاردن .

على امتداد فترة تاريخهم السياسي بالرغم من الانقسام الذي ساد ممالكهم . ولكن في كثير من الاحيان لم يكن لمثل هذا التحالف لتكتب له الديمومة ، اذ سرعان ما كان الملوك الاراميون يتنازعون فيما بينهم فينفرط عقد تحالفهم .

اثر الانقسام في حياة الاراميين ومصيرهم

ولعل طموح الاشوريين في التوسع واعادة مجد امبراطوريتهم واثارتهم الحملات العنيفة ضد الاراميين بين الحين والاخر ، كان من العوامل الهامة التي ادت الى فشل الاراميين في تأسيس مملكة آرامية موحدة قوية . اضف الى هذا ، الحزازات القبلية التي وجدت لها مرتعاً خصباً بينهم والتي حالت دون لم شملهم وجمع كلمتهم . فكثيراً ما أدت هذه الحزازات الى نشوب حروب فيما بين ممالكهم ، فيتحزب فريق لهذه المملكة وآخر لتلك ، كما حدث مثلا عندما اغتصب زكير الملك في حماه ، فقد خشي بأسه الاراميون الاخرون ولا سيما اراميو دمشق ، فأنشأوا تحالفاً ضده ضمّ ستة عشر ملكاً معظمهم اراميون بقيادة برحدد ملك دمشق . والانكى ان توعي ملك حماه ارسل ابنه محملاً بالهدايا الثمينة لتهنئة الملك داود ، ألدّ اعداء

ارامي صوبا ودمشق ، وذلك عندما قهر الاخير حدد عزر ملك صوبا الارامي . حيث ان كلا من توعي وحدد عزر ، كان يكن" للآخر حقداً دفيناً وعـداء سافراً . فهذه الانقسامات بين صفوف الاراميين ، ليس فقط انها لم تفسح لهم المجال لتوحيد ممالكهم ، وتأسيس امبراطورية ارامية على غرار الامبراطورية الاشورية او البابلية ، بل وشجعت الاشوريين على ضربهم بصورة متوالية واخضاع ممالكهم الواحدة تلو الاخرى كلاً على انفراد ، وجلاء عدد غفير منهم واسكانهم بلاد اشور ، وبالتالي وضع حد" لتاريخهم السياسي .

الاراميون شعب نشيط كفوء

ولكن هؤلاء الاراميين المسيحيين لم يعيشوا عالة على المجتمع او عبيداً للاشوريين ، بل تمكنوا بفضل ذكائهم وثقافتهم ، وبفضل رقة لغتهم وطلاوتها وسلاستها ، ان يحتلوا مراكز مرموقة في الامبراطورية الاشورية ، ويحصلوا على ارفع المناصب ، ويتدرجوا في مختلف الوظائف . ذلك بان ملوك اشور اذ لمسوا فيهم الذكاء والخبرة والكفاءة قربوهم اليهم ليستفيدوا من مواهبهم ، فاتخذوا منهم أمناء

لأسرارهم وكتاباً في دواوينهم وبخاصة في صفوف جيشهم . فقد واكب هؤلاء الكتّاب الجيش الاشـــوري في حلّه وترحاله ، وسجلوا الحوادث وأرّخوا الحروب الـتي خاضها الجيش الاشوري ، ودوّنوا انتصاراته وغنائمه . وقد اكتشف مشهد يعود الى عهد تغلاثفلاصر الثالث ، يمثل كاتباً ارامياً يمسك بيديه ريشة وملفاً بردياً وهو يسجل باللغة الارامية الغنائم التي جاء بها الجيش الاشوري من احـدى المدن المفتوحة (١) . وفي سنة ٨٣٠ ق . م . نجد الملك شلمناصر الثالث يعين شاشي الارامي حاكماً على مملكة عمق (احدى دويلات منطقة قيليقيا) ، على اثر شغور عرشها بانتحـار ملكها شوري الذي كان قد اغتصب الملك (٢) . وفي بابل نجد « اداد ـــ افال ـــ ادين » الارامي يتزعم انقـــلاباً عسكرياً ضد حاكم بابل فينحيه من منصبـه ويسيطـر على البلاد دون ان يلقى مقاومة تذكـر من ملك اشور ، لا بل ان الاخير اضطرّ الى الاعتراف بالنظام الجديد وصاهر الملك الارامي طمعاً بصداقته (٣) .

---

(١) المجلة البطريركية . السنة ٤ ص ٤٩٨ .

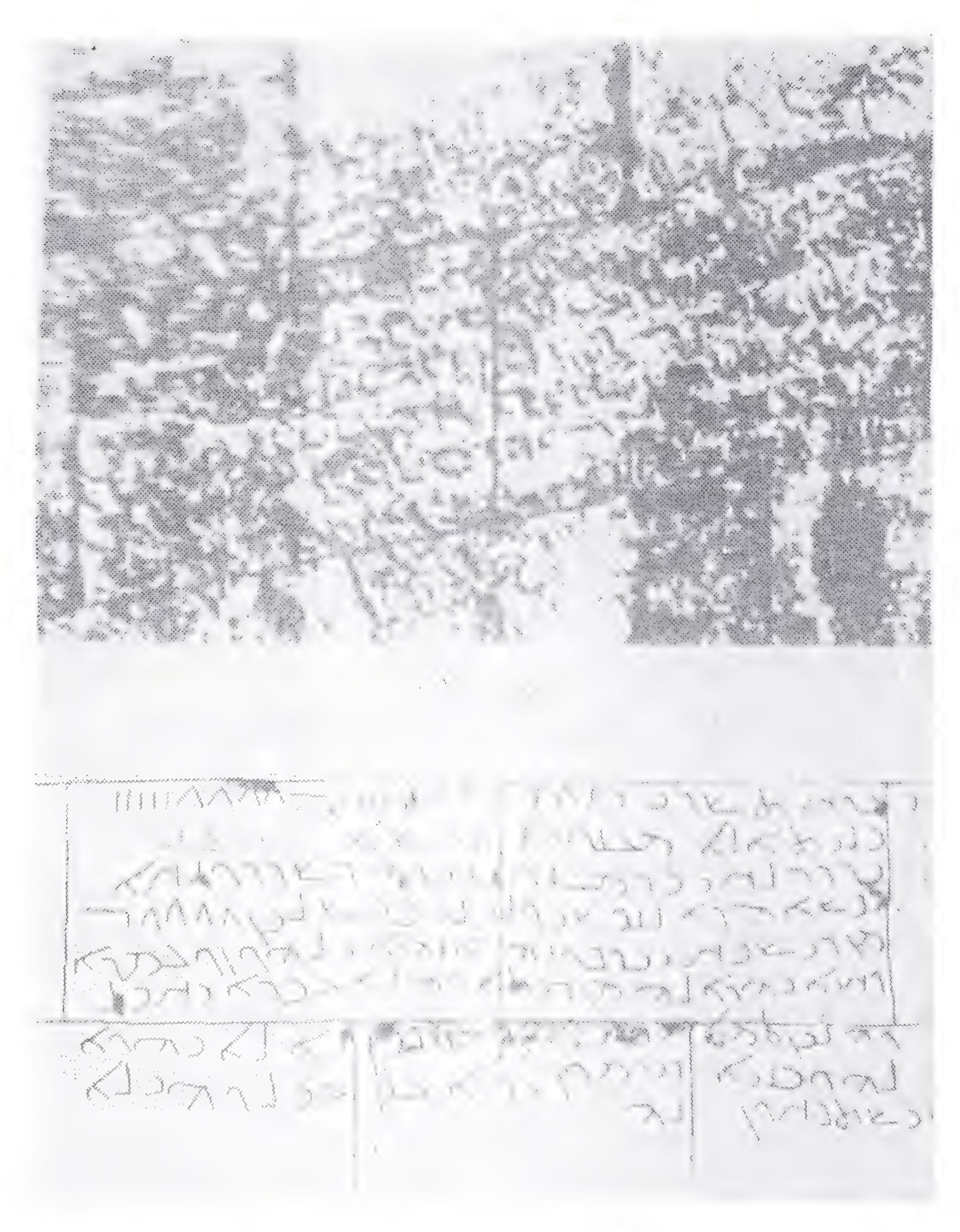
(٢) الاراميون .

(٣) المصدر نفسه .

معالم الحضارة عند الاراميين

مما لا شك فيه ان الحضارة البشرية لم تنفرد في بنائها امة واحدة دون سواها ، ولئن يتفاوت الفضل في هذا البناء بين امة واخرى . فكل امة دخلت التاريخ ، صغيرة كانت ام كبيرة ، شهيرة كانت ام مغمورة ، قائمة هي ام أمست في خبر كان ، لا بدّ وانها وضعت لبنة في صرح الحضارة البشرية الشامخ . وهكذا تكون هذه الحضارة قد نمت وازدهرت بتضافر جهود كافة الامم والشعوب التي ظهرت عبر الحقب والاجيال .

وفي بحثنا عن حضارة الآراميين . لا نجد لهم حضارة قائمة بذاتها ذات طابع خاص ، بل مقتبسة ، ولكن هذا لا يعني بالطبع انهم لم يسهموا في بناء الحضارة البشرية ، فحضارتهم الخاصة تقوم على أساس لغتهم التي تركت تراثاً ثقافياً ثراً ، وكان لها أثر بعيد المدى في ازدهار الحضارة العالمية ، ذلك بأنهم اقتبسوا الابجدية الفينيقية لكتابتهم ، والكتابة ، كما لا يخفى ، هي العرق النابض للحضارة . فلم يتسنّ للحضارة البشرية ان تأخذ مسارها الطبيعي إلا بعد اختراع الحروف الابجدية التي يعود الفضل في ابتكارها



نقش سرين - كتابة سريانية من سنة ٧٣ م.

اولاً الى الفينيقيين ، ومن ثم الى الآراميين الذين طوّروها بحيث أصبحت سهلة المنال والاستعمال ، فاعتمدتها الشعوب الاخرى أساساً لأبجدياتها .

أما بالنسبة الى ما كان لهم وما خلّفوه من معالم حضارية اخرى ، فجلّه مقتبس من حضارة شعوب وادي الرافدين ووادي النيل ، يضاف اليه ما استطاعوا اضافته من ابتكار وتطوير . ولو تتبعنا تاريخهم لوجدنا ان الاسباب التي أعاقتهم عن الابتكار أسوة بغيرهم تعود الى اضطرارهم للحفاظ على كيانهم واستقلالهم بعد ان كافحوا كفاحاً مريراً في سبيل ذلك . فما كادوا يستقرّون وينظّمون شؤونهم حتى أخذ الاشوريون بمضايقتهم واشغالهم بالحروب . وإزاء ذلك لم يكن لهم بدّ من تركيز جهودهم وبذل طاقاتهم وحشر امكاناتهم من أجل ترسيخ دعائم استقرارهم والذود عن حياض ممالكهم ، وهذا ما شغلهم عن الاهتمام بالناحية الحضارية طيلة القرون الخمسة التي استمرّ خلالها وجودهم كشعب ذي كيان وسيادة . الا ان فترات من الاستقرار تخلّلت هذه الظروف القاسية ومنها تلك التي تمّ للآراميين فيها السيطرة على جيرانهم العبرانيين ، وفترات الاضطرابات الداخلية في آشور ، حيث كانوا ينهمكون في تسويتها

فيكفوّا عن إزعاج الآراميين فيوقفون حملاتهم عليهم . غير ان هذه الفترات المتقطعة من الاستقرار لم تكن لتدوم طويلاً ، وبالتالي لم تكن كافية لاتاحة الفرصة امام الاراميين للخلق والابداع بالشكل المطلوب . وهذا ما حداهم الى ان يعمدوا الى حضارة الشعوب المجاورة فيقتبسوها ثم يوصلوها بدورهم الى اوربا عن طريق الاغريق . وفي هـذا الصـدد يقول عباس محمود العقاد « كان الآراميين بطون في العراق وبطون اخرى في سيناء وفلسطين ، فكانوا ينشرون ما اقتبسوه من وادي الرافدين ووادي النيل على السواء ، وكان الاغريق على اتصال بهم في الموانىء الشرقية من آسيا الصغرى الى تخوم سيناء . فنقلوا عنهم وسائل الحضارة والتجـارة قبل ان يهتدي اليها ابناء القارة الاوربيـة بزمن طويل » (١) ونستطيع ان نجمل معالم الاراميـين الحضارية في مجـالات ثلاثة هي ١ ـ الفن والصناعة . ٢ ـ التجارة ٣ ـ الدين والعبادة .

---

(١) العرب واليهود في التاريخ ص ٥٦ .

ان ما اكتشف من آثار الآراميين حتى الآن يشير الى انهم زاولوا ضربين من ضروب الفن هما فن النحت وفن البناء ، الى جانب المهارات الفنية في بعض الصناعات الاخرى . فقد أسفرت التنقيبات التي أجريت في مناطق آرامية عن اكتشاف العديد من التماثيل والرسوم للآلهة والملوك ، كتمثال برحدد في دمشق ، والنصب والمنحوتات التي تعود الى العهد الآرامي ، والتى اكتشفت في كل من تل حلف وشمأل (زنجرلي) وحماه وسواها . الا انه لا يمكن اعتبار هذا الفن فناً آرامياً بحتاً ، لأن طابع هذه التماثيل والمنحوتات هو نفس طابع المنحوتات التي كانت للشعوب المجاورة والسابقة لعهد الاراميين ، كالفينيقيين والميتانيين مثلاً . وهذا يعني ان الآراميين كانوا يتعشقون فن النحت ، وإذ لم يكن فنانون اختصاصيون ، استخدموا فنانين اجانب في نحت تماثيلهم وتخطيط رسومهم . وهذا ما فعلوه ايضاً بالنسبة الى فن البناء ، فقد « استعانوا بسكان البلاد الاصليين لتحقيق مشاريعهم الهندسية ووجدوا بينهم المهندسين والفنانين والصناع والعمال . ومقابل هذا كله

أعطوا لتلك البلاد لسانهم الآرامي »(١) .

وقد برز فن البناء عندهم في الاسوار المنيعة التي أحاطوا بها بعض مدنهم الكبرى مثل دمشق وحدراك وأرباد وغيرها ، والتي حالت في كثير من الاحيان دون تمكين العدو من اقتحام تلك المدن . وهناك ايضاً المعابد البديعة والقصور الفخمة ، وقد كان معبد حدد في دمشق على جانب كبير من الابهة والعظمة (٢) حتى انه استهوى آحاز ملك يهوذا لدى زيارته دمشق ، فأمر بإقامة نظير له في اورشليم . وقد أشار العهد القديم الى هذه المبادرة بقوله « ورأى المذبح الذي في دمشق ، وأرسل الملك آحاز الى اوريا الكاهن شبه المذبح وشكله حسب كل صناعته ، فبنى

---

(١) الجزيرة السورية لاسكندر داود ص ١٣١

(٢) يذهب بعضهم الى ان موقع هذا المعبد هو نفس موقع الجامع الاموي . وبهذا الصدد يقول الدكتور عبد القادر الريحاوي مدير المباني التاريخية في المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق : « الجامع الاموي هو قلب دمشق القديمة والبقعة المقدسة التي كرست للعبادة منذ ألوف السنين . . فعليها أقام الآراميون في مطلع الألف الاول قبل الميلاد معبداً لالههم الكبير حدد الذي ذاعت شهرته في العالم القديم ، ثم بني بعده في القرن الثالث للميلاد معبد على اسم الاله جوبيتر الدمشقي (المشتري) كما كما عرفه العرب ، فكان أعظم معابد العصر الروماني فخامة واتساعاً .. » (ملحق جريدة الثورة العراقية . العدد ٤١ ، حزيران ١٩٧٩) .

الكتابة الآرامية في عهد المملكة الاخمينية
القرن الخامس ق . م مصر العليا

اوريا الكاهن مذبحاً حسب ما أرسل اليه الملك آحاز من دمشق » (١) . ولا بدَّ ان البلاط الذي ابتناه برركب ابن بنامو ملك شمأل كان من الفخامة والروعة بمكان حتى كان موضع إعجابه الى درجة تفضيله اياه على بلاط كيلامو العظيم حيث يقول « ان ابائي ملوك شمأل لم يكن لهم بلاط كيلامو ، وكان لهم هذا البلاط للشتاء والصيف . أما انا فقد شيّدت هذا البلاط . . (٢) .

أما في المجال الصناعي ، فان بعضاً من الصناعات المتقنة قد راجت عند الاراميين كصناعة التحف العاجية وصياغة ونقش الحلي الذهبية والفضية والنحاسية ، وصناعة الاسلحة والمركبات الحربية التي استخدموها في حروبهم وغزواتهم ، وصناعة نسيج الاقمشة الحريرية المزركشة الثمينة . ويستدل على هذا مما ورد في احدى كتابات اداد نيراري ملك آشور التي يذكر فيها انه غنم من ماري (وهو نفس بر حدد بن حزائيل) ملك دمشق ، اشياء ثمينة حيث يقول « اني حملت على بلد دمشق وحبست ملكها ماري في دمشق عاصمته . . وفي دمشق نفسها وفي قصره

(١) ٤ ملوك ١٦ : ١٠ و ١١
(٢) الآراميون

أخذت منه ۲۳۰۰ وزنة فضة و ۲۰ وزنة ذهب و ۳۰۰۰ وزنة نحاس و ٥٠٠٠ وزنة حديد ، وثياباً مزركشة وألبسة من كتان وسريراً من عاج وعرشاً كله من عاج » (١) .

التجارة

اشتهر الآراميون بالتجارة شهرة الآشوريين بالحروب والفتوحات حتى انهم بذّوا الفينيقيين في التجارة البرّية وأصبحوا سادتها بلا منازع كما كان الفينيقيون سادة التجارة البحرية . فقد احتكروا تجارة سورية الداخلية باحتكارهم طرق المواصلات المؤدية الى البلاد المتاخمة ، حيث جابت قوافلهم التجارية بلدان الهلال الخصيب ووصلت حتى منابع الرافدين شمالاً وافريقيا جنوباً . واشتهرت دمشق خاصة كمركز تجاري هام ، وهذا ما دعا اخاب ملك اسرائيل ان يشترط في عقد معاهدة صلح مع برحدد الثاني ملك دمشق ، افساح المجال امامه ليفتح اسواقاً تجارية في دمشق بقصد انعاش حركة التجارة في بلاده . كما كان للاراميين في الوقت نفسه اسواق تجارية في مدينة السامرة (نابلس) .

---

(١) كلدو وآثور مج ١ ص ٧٦

الا ان اهم المراكز التي كانت تعتبر اسواقاً تجارية للاراميين هي تدمر (في سورية) والحضر (في العراق) . وقد استورد الاراميون الارجوان من فينيقية والمطرزات والكتان والعاج والابانوس من شمال افريقيـــة . كما اكتشفت في خرائب نينوى بعض الموازين التي كان يستعملها التجار الاراميون والتي تركوها هناك (١) . ولعل انتشار لغتهم كان عاملاً اساسياً في ازدهار تجارتهم .

الدين والعبادة

نظرة واحدة الى آلهة الاراميين تكفي لمعرفة ان الهتهم كانت مستعارة من الامم التي سبقتهم في الحضارة ولا سيما الاموريين والكنعانيين الذين سكنوا المنطقة قبلهم ، فكان كبير الالهة عند هذه الشعوب هو « ايل » ويأتي بالدرجة الثانية بعل وحدد ، وهذه الالهة ذاتها كانت من معبودات الاراميين . فقد اقتبسوا فيما اقتبسوا من الفينيقيين والحثيين والاشوريين الهتهم فعبدوها ، كما تأثرت الفرقة التي اتجهت الى مصر بعبادة الهة المصريين ، لذلك فان كثيراً من

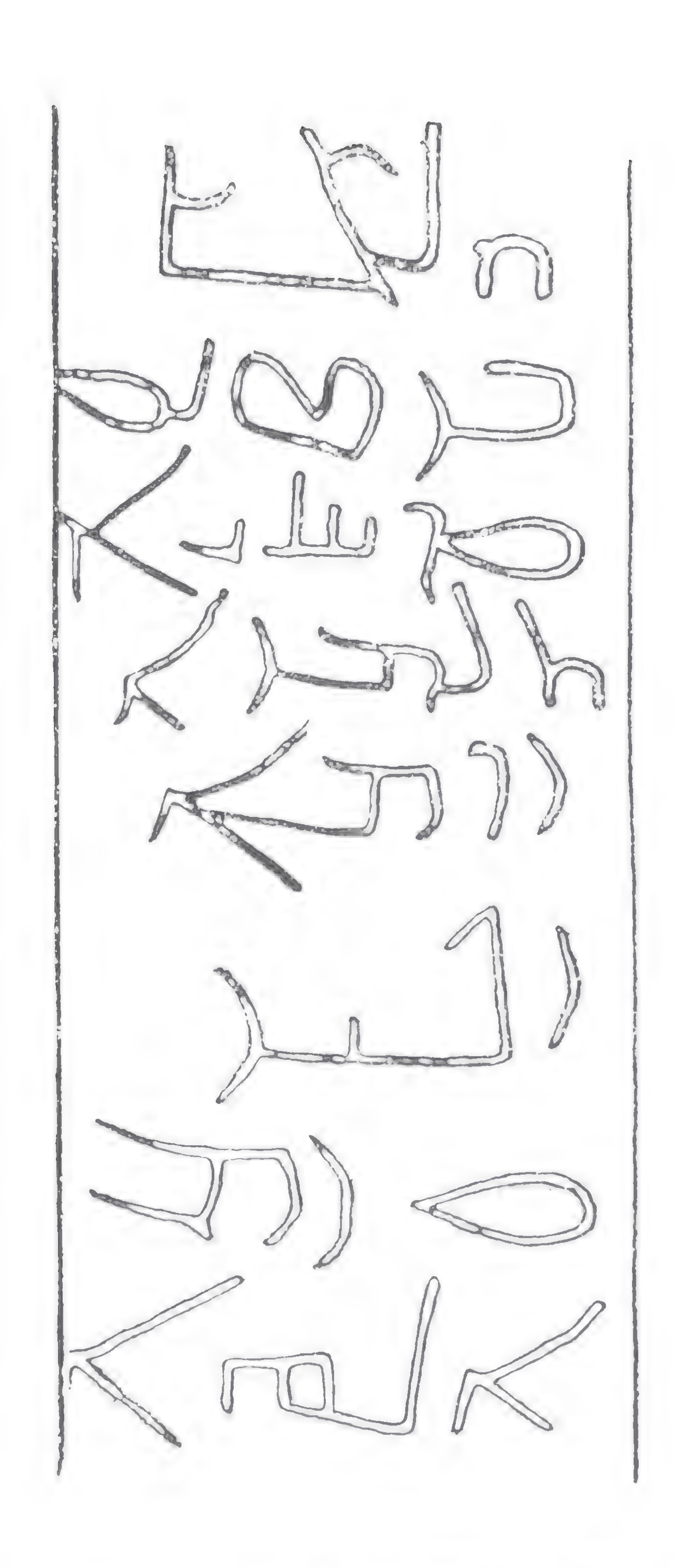
(١) تاريخ سورية لفيليب حتي ص ١٨١

معتقدات الاراميين هي شبيهة بمعتقدات قدماء المصريين ، كما ان القبائل الارامية التي سكنت في العـراق عبـدت الاله « آنو » وهو اكبر الالهة عند العراقيين القدماء يسكن السماء ولا ينزل الى الارض يفوق الادراك ويسود مجموعة الالهة ذات القوة الواسعة الازلية الـتي لا يمكن تشبيهها ولا يمكن تمثيلها الا بالكواكب كالشمس والقمـر . . . الـخ (١)

واهم ما اعتقد به الاراميون ، عـــودة الحياة الى الانسان بعد موته ومواصلته الحياة ولكن بهيئة جـــديدة وبشكل آخر غامض . وان الموتى الاتقياء تتاح لهم الفرصة ليأكلوا ويشربوا مع الالهة ، ولهذا كانوا يقدمـون الهدايا للميت معتقدين بانها ستسره كثيراً من هنا كان ازعاج الميت وتعكير صفو راحته وهدوئه امراً ممقوتاً عنـد الارامـيين ومستوجباً لـــنزول اقسى اللعنات على من يحـاول ذلك ، معتبرين مثل هذا الازعاج خطية لا تغتفر ، وكذلك الامر بالنسبة الى انتهاك حرمة الموتى بسرقة الامتعة والهدايا التي كانت تدفن معهم . ويظهر من احدى الوثائق المكتشفة في

---

(١) مجلة العربي الكويتية عدد ٨٣ ص ١٢٥



احد النقوش الآرامية المكتشفة في انقاض مدينة دورا ـ الرها

نيرب (قرب حلب) مرارة اللعنة التي تنزلها الالهـة بمن يتجاسر ويمس كرامة الموتى ، وهذا نصها : لسين ـ زير ـ ابي كاهن سهر في نيرب ، لقد مات وهذه صورته وهذا مرقده ، فأياً كنت انت الذي تلحق الضرر بهذه الصورة وهذا المرقد (وتزيله) من مكانه لينزع سهر وشمش ونيـكال ونوسكو اسمك ومـكانك من الحياة وليميتوك شر ميتـة ، وليبددوا نسلك . ولكن ان حافظت على هذه الصورة وهذا المرقد ليحافظ فيما بعد على صورتك ومرقدك (١) .

ومن جملة معتقداتهـم ايضاً ، ان الارواح الشريرة تدخل الى جسد الميت من فمه فتفسده لذلك اعتادوا وضع صفيحة معدنية على فم الميت لتمنع دخول الارواح الشريرة الى جسده . كما اعتقدوا بتأثـير الكـواكب في الحظـوظ البشرية (٢) .

واذا لم يكن للاراميين الهة خاصة كما اشرنا اعلاه ، اتخذوا الهة متعددة سادت عبادة بعضها اكثر من مملـــكة ارامية ، في حين ان غـــيرها اقتصرت عبادتها في مملكة

---

(١) الآراميون

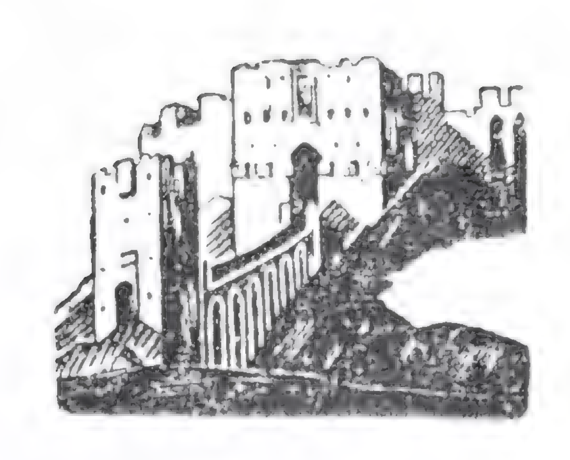
(٢) دوفال مجلة الحكمة السنة ٣ ص ٤٧٢

دون اخرى . واشهر الالهة التي عبدها الاراميـون هي : حدد ، سين ، ركب ، ايل ، بعل ، شمين ، ملقارت ، شمش . بيد ان الاله الاوفر حظاً عندهم كان حـدد الذي يمكن اعتباره زعيم الهة الاراميين ، فقد انتشرت عبـادته في معظم الممالك الارامية ولا سيما في دمشق وشمأل وحران ، وهو اله جبار يسيطر على السماء والارض ، رب القنوات واله الزوابع والعواصف والامطار . وقد هام الدمشقيـون خاصة بعبادته فاقاموا له معبداً بديعاً في وسـط المدينـة ، واتخذ ملوك دمشق اسمه تيمناً ، ولهذا الاله زوجة تدعى انارغاتس وهي الهـة الخصب ، وكان لها في هيرابوليـــس (منبج) معبـــد ضخم تقام فيه الحفــلات الدينية في المناسبات الكبرى .

وعبد الاله سين في مملـكة ارام النهـــرين ، فنال حظوة خاصة لدى ارامي حران ، وظل الحرانيون متمسكين بعبادته حتى بعد المسيحية بقرون عديدة ، واقـــيم له في حران معبد كبير وجميل ، كما انتشرت عبـادته في مملـكة اغوشي ، حيث اكتشف في نيرب نصبـان يمثـلان كاهنين

للاله سين . وعبـد فريق من الارامييـين الاله « ركب » ولا سيما اراميو مملكة شمأل ، واتخذوه شفيعاً للعائلة المالكة وتسمـى بعض ملوكهـا باسمـه مـع اضافة لفظـة « بر » قبل الاسم .

بعد هذا العرض التاريخي العابر ، سنستعرض فـيما يلي تاريخ كل من الممالك او الدويلات الارامية على حدة ، بقدر ما استطعنا الوقوف عليه من اخبارها .



مملكة صوبا

ظل الاراميون يتنقلون من مكان الى آخر حتى استقر بهم المقام في مجموعات احتلت مناطق عدة من سورية وما بين النهرين كما مر معنا ، كونت فيما بعد الدويلات الارامية . ولعل جماعة الاراميين الذين توجهوا الى منطقة صوبا (البقاع حالياً) كانوا اول أو من اوائل من اسسوا دويلة ارامية منظمة في اوائل القرن الحادي عشر ق . م . ولو استعرضنا اوضاع سورية وفلسطين السياسية يومذاك ، لأدركنا كيف ان سوء تلك الاوضاع كان لصالح القبائل الارامية الغازية . فقد كانت معظم انحاء سورية خاضعة لسيطرة الحثيين ، الا ان هؤلاء اخذوا بالانحطاط منذ اواخر القرن الثاني عشر ق . م على اثر اجتياح موجة من « شعوب البحر » آسيا الصغرى واستقرارها في سورية وفلسطين ، ولا سيما بعد انخذالهم امام المصريين ، فانقسمت مملكتهم الكبيرة الى دويلات متفرقة وضعيفة مثل كركميش وحماه وصوبا .

اما في فلسطين فكانت الاحوال اكثر اضطراباً ، حيث كان التناحر قائماً على قدم وساق بين شعوب المنطقة ، فالعبرانيون القادمون من مصر في اشتباك مستمر مع الكنعانيين سكان البلاد والعمونيين من جهة ، والعمالقة والموابيين والادوميين وسواهم من جهة ثانية . كما ان الفوضى كانت سائدة منذ فترة طويلة في صفوف العمونيين والكنعانيين . فهذه الظروف كلها خلقت جواً ملائماً للاراميين لكي يثبتوا اقدامهم ويؤسسوا ممالكهم على انقاض الممالك الحثية المنهارة .

في هذه الظروف قامت مملكة صوبا في منطقة وادي العاصي الاعلى وهي المعروفة اليوم بـ « البقاع » ، وقيل ان بلدة عنجر مشيدة على انقاض عاصمتها . وكانت من القوة بمكان بحيث استطاعت ان توسع ارجاءها كثيراً فتبسط نفوذها الى حوران جنوباً والى الفرات شرقاً . ويكاد العهد القديم يكون المصدر الوحيد لاخبار هذه المملكة . وان اول اشارة اليها وردت في (١ ملوك ١٤ : ٤٧) عند الحديث عن الحملة التي شنها شاول الملك العبري عليها حوالي منتصف القرن الحادي عشر ق . م وحالفه فيها النجاح .

ويبدو ان اضطراباً حدث في منطقة الفرات من هذه المملكة ، وقد يكون ذلك نوعاً من العصيان ، لذلك نرى ملكها حددعزر يتوجه الى هناك لقمعه ، كما جاء في العهد القديم وضرب داود حددعزر بن رحوب ملك صوبا ، وقد كان ذاهباً ليسترد سلطته على نهر الفرات (١) والظاهر ان هذه المملكة كانت تنعم في بحبوحة من الرخاء والرفاهية ، غنية بالنحاس والذهب ، حيث جاء في سفر الملوك الثاني « ان داود الملك غنم منها نحاساً كثيراً كما غنم تروساً ذهبية كان يحملها جنود ملكها حددعزر (٢) . هذا واشتهرت من مدنها باطح وبيروتاي وحيلام (٣)

العبرانيون يضايقون صوبا

لقد انتهج الملك داود سياسة التوسع منذ تسلمه مقاليد الامور في مملكة يهوذا . وتمشياً مع هذه السياسة ،

---

(١) ٢ ملوك ٨ : ٣ .

(٢) الاصحاح ٨

(٣) بيروتاي ، يرجح انها قرية برتيان الواقعة على بعد ستة اميال الى الجنوب الغربي من بعلبك . حيلام كانت تقع في سهل حوران (قاموس الكتاب المقدس) .

خاض معارك دامية مع الاراميين والعمونيين وغيرهم ، حالفه النجاح في معظمها حتى وصل نفوذه الى اقصى حدود وصلها عبر تاريخ شعبه . والظاهر انه كان يحاول ان يجد ثغرة عند هذه الشعوب فيستغلها لصالحه ويوجه ضربته اليها . وعليه لما عزم حددعزر ملك صوبا على الذهاب الى منطقة نهر الفرات لاستعادة نفوذه عليها ، انتهز داود هذه الفرصة فهاجمه وتمكن من دحر جيشه واسر ١٧٠٠ فارس وعشرين راجلاً ، وعرقب خيل جميع المراكب ، ولم يبق منها سوى مئة مركبة (١) ، فاضطر حددعزر الى طلب النجدة من الاراميين المتواجدين في دمشق فانجدوه ، فعاد الاشتباك بين الجيشين الارامي والعبري ، الا ان النصر كتب لداود ايضاً فقتل من الاراميين اثنين وعشرين الف رجل ، واقام محافظين في ارام دمشق فكان الاراميون عبيداً لداود يؤدون الجزية (٢) ، وغنم ما كان لعبيد حددعزر من تروس ذهبية واتى بها الى اورشليم ، كما غنم كمية كبيرة من النحاس من باطح وبيروتاي . هذا وقد سرّت انباء اندحار حددعزر توعي ملك حماه الارامي

(١) ٢ ملوك الاصحاح ٨

(٢) فيه

لعداء بينهما .

في هذه الاثناء كان الملك داود يضغط على العمونيين انتقاماً لاهانة ألحقت برسله من قبل ملكهم ، فدعا هؤلاء الى حلف ضده وسرعان ما استجاب حددعزر لدعوتهم ، ثم انضم اليهم اراميو بيت رحوب وصوبا ومعكه وسواهم ، فنظموا جيشاً قوامه ثلاثة وثلاثين الف محارب . فاتجه هذا الجيش نحو ربة عمون (عمان الحالية) عاصمة العمونيين لمساندة جيش العمونيين ، فاضطر مواب قائد الجيش العبري الى ان يفتح جبهتين ، الواحدة بقيادته لمقاتلة الاراميين والاخرى بقيادة اخيه ابيشاي لمقاتلة جيش العمونيين ، فانهزم الاراميون اولا ثم لحق بهم العمونيون، الا ان حددعزر عاد فدعا الى تحالف ارامي آخر ، انضم اليه اراميو ما بين النهرين ، ووضع الجيش تحت قيادة شوباك الصوبي فاشتبك مع الجيش العبري في معركة ضارية عند حيلام ، اندحر فيها الجيش الارامي وتكبد خسائر جسيمة منها ٧٠٠ مركبة و ٤٠ الف فارس ، كما قتل قائده شوباك (١) .

---

(١) فيه

وعلى اثر هذه الخسائر المتكررة ، حدث تصدع كبير في صفوف الجيش الارامي الصوبي ، فاعلن قائد الجيش رزون المصيان على الملك حددعزر ، وفصل فرقة كاملة واتجه بها صوب دمشق ، فدخلها واعلن نفسه ملكاً عليها ، مؤسساً بذلك مملكة ارامية جديدة هي مملكة ارام دمشق ، فلقي تأييداً حاراً وتجاوباً منقطع النظير من الاراميين ، وسوف يقض مضاجع اسرائيل طيلة عهد ملكهم سليمان . اما صوبا فقد نالها الاضمحلال في اعقاب سلسلة الهزائم التي مني بها جيشها ، وبسبب الخلافات الداخلية التي ادت الى الانقسام الخطير في صفوفه .



دويلات
رحوب ـ معكا ـ جشور

لقد عرفنا فيما سبق ، كيف ان الاوضاع السياسية المتدهورة في فلسطين وسورية الجنوبية في غضون القرن الحادي عشر ق . م ، ساعدت الارامیین على الاستقرار وتأسيس دويلات في هذه المنطقة ، ومنها الدويلات الثلاث التي نحن بصددها والتي كانت متاخمة الواحدة للاخرى .

١ - رحوب

نشأت هذه الدولة في اقصى شمال فلسطين الى الجنوب من مملكة صوبا وعلى مقربة من مجرى الليطاني الاوسط . وقد جاء في العهد القديم انها تقع عند مدخل حماه (١) ، والمقصود بمدخل حماه هو سهل البقاع الذي يبتدىء من حدود فلسطين الشمالية ، وفيه الطريق المؤدي الى حماه . وقد جعل بعضهم موقعاً على ضفاف نهر الفرات

(١) سفر العدد ١٤ : ٢٢

الاوسط . والحقيقة ان هنالك مدينتين بهذا الاسم ، الاولى في شمالي فلسطين وفي الوادي المعروف بوادي رحوب وهي التي اسس فيها الاراميون الدويلة موضوع البحث ، والثانية تقع على نهر الفرات احتلها الاراميون لدى تأسيسهم مملكة سوحي ، وهي نفس الرحابة أو الرحبة التي تعرف اليوم باسم « الميادين » (١) والتي يعزى تأسيسها الى الملك نينوس بن بلوس مؤسس نينوى (٢) كما ان هنالك منخفضاً جنوبي شرقي دمشق (في جبل حوران) يدعى الرحبة أو رحبت كما ورد في الكتابات الصفوية المكتشفة في تلك المنطقة (٣) . فدويلة رحوب اذن كانت في شمال فلسطين وليس على الفرات وذلك :

١ ـ لاقتران اسمها بدويلتي معكا وجشور في كثير من الاحيان والقضايا ، الامر الذي يدلّ على انها كانت متاخمة لحدودهما .

٢ ـ ان العهد القديم يحدِّد موقعها في منطقة مدخل

---

(١) مجلة لسان المشرق . السنة ٣ ص ٢٣٦

(٢) التاريخ الصغير ص ٩٩

(٣) حضارة العرب ومراحل تطورها لأحمد سوسه ص ٢٠٨

حماه كما أشرنا ، التي كانت جزءاً من أرض كنعان ، كما يخبرنا ان موسى النبي أرسل رجالاً ليتجسّسوا أرض كنعان « فصعدوا واجتسّوا الارض من برية صين الى رحوب عند مدخل حماه(١) وأبرز ما وصل الينا من أخبار هذه الدويلة ، دخولها في حلف دعا اليه ملك عمون ضد داؤد الملك حيث أنجدتهم ومملكة صوبا بعشرين الف مقاتل كما مرّ معنا ، الا ان القتال انتهى لصالح جيش داود الذين كان يقوده يواب .

٢ - معكا

دويلة تقع شرقي نهر الاردن في المنطقة المتاخمة لجبل حرمون (جبل الشيخ) شمالاً وحدود فلسطين الشمالية الشرقية غرباً ، أي في منطقة الجولان وفي الموقع المعروف بـ « تل القاضي » . ليس لدينا أية معلومات عن أي جانب من حياتها ، سوى اشتراكها في الحلف الذي دعا اليه ملك عمون ضد الملك داود حيث أنجدته بألف مقاتل .

٣ - جشور

احتلت هذه الدويلة المنطقة الواقعة شرقي معكا بين

---

(١) سفر العدد ١٣ : ٢٢

دمشق واليرموك وكثيراً ما يرد ذكرها في العهد القـــديم مقروناً بعمكا ، الامر الذي يشير الى وثوق الملاقات بـين هاتين الدويلتين .

يبـدو ان العبرانيـين سيطروا عليها وعلى شقيقتيهـا رحوب ومعكا على أثر إخضاع الملك داود الآراميين في كل من صوبا ودمشق ، وللعمونيين والعمالقة وغيرهم ، حيث لا يعود يرد لها ذكر في العهد القديم بعد عهـد داود . وقد استوطن العبرانيون جشور دون ان يطردوا سكانها الاصليين (١) إلاّ انهم قبضوا على زمام الحكم فيهـا ، وقد تمتّعت بشيء من الاستقلال الذاتي حيث كان لهـا ملوك خاصون ، وقد تزوّج داود من معكة ابنة احد ملوكهـا ويدعى تلماي بن عميهود ، ولدت له ابيشالوم . ولما اغتـــال ابيشالوم أخاه امنون ، هرب من وجـه أبيه اليهـــا ، ومكث فيهـا ثلاثين سنة (٢) .

---

(١) سفر يشوع ١٣ : ١٣
(٢) ٢ ملوك ١٣ : ٣٧

مملكة دمشق

مدينة دمشق

دمشق ، مدينة عريقة في القدم ، ورد ذكرها في العهد القديم . ودمشق لفظة آرامية ثمانة أصلها « مشق » تتقدمها دال النسبة ، ومعناهـا الارض المزهرة والحديقـة الغناء (١) . استوطنها الاموريون قبل ان يحتلها الآراميون . وقد ذكر يوسيفوس المؤرخ الشهـــير ان باني دمشق هو عوص بن آرام بن سام الذي سكنها وأولاده من بعده ، وإن صحّ هذا ، تكون دمشق مدينة آرامية قلباً وقالباً ، ومنها اتخذ ابراهيم الخليل الآرامي مديراً لأعماله هو اليعازر الدمشقي الذي أوفده الى حرّان ليخطب ابنة لابان الحراني لابنه اسحق . وفي هذه المدينـة أسّس الآراميون أقوى

---

(١) مجلة المشرق البيروتية مج ٢ ص ٦٥٩ ، ومحمد كرد علي في مقدمة كتابه « دمشق مدينة السحر والجمال »

وأوسع ممالكهم ، وأطلقـوا عليها اسم « دارميسيق » أي الارض المسقية او الدار المسقية (١) .

دمشق أعظم مملكة آرامية

إنّ الآراميـين ولئن لم يفلحوا في تأسيس مملكة آرامية كبيرة موحّدة نظير الشعوب الاخرى التي سبقتهم ، تجمع شملهم وتوحّد كلمتهم وتنشر نفوذهم وتبسط سيطرتهم ، الا ان قيام مملكة دمشق يعتبر ولا ريب حدثاً ذات شأن كبير في تاريخ الممالك الآرامية المبعثرة ، نظراً الى توسعها وأهميتها الثقافية والتجارية والاقتصادية والعسكرية ، بالاضافة الى كونها أقوى مملكة آرامية استطاعت أن تقضّ مضاجع الآشوريين من جهة والعبرانيين من جهة اخرى ، حقبة طويلة من الزمن. وكثيراً ما كانت تتزعّم الممالك الآرامية بشبه اتحاد فدرالي او تحالف ، وتقودها ضد الآشوريين أو تؤلبها ضد أية مملكة اخرى تحاول انتزاع الزعامة منها ، كما حدث مثلاً عندما حاول زكير جعل حماه مركز ثقل بين الممالك الآرامية ولولا طموح مـلوك آشور التوسّعية ، وسعيـهـم الى إخضـاع الممالك كلّ على حدة ، لأفلح ملوك دمشق في تأسيس مملكة كبرى

---

(١) جريدة الثورة العراقية عدد ٣٢١١ ، سنة ١٩٧٩

واسعة الارجاء مترامية الاطراف تضمّ معظم الممالك الارامية يومذاك ، ولا سيما في عهد ملوكها آل حدد الذين اشتهروا بحروبهم الكثيرة ضد العبرانيين وتمكنـوا من بسط نفوذهم بالقوة على العديد من ممالك آرام وكنعان وفلسطين . وقد امتدّ نفوذهم هذا يوماً حتى حدود حلب بدليل اكتشاف نصب آرامي في بريج قرب حلب نحت عليـه مشهد الاله ملقارت ونقش عليـه بالآرامية ما ترجمتـه « النصب الذي أقامه برحدد ملك آرام على شرف سيده ملقارت وأهـداه اليه لأنه حماه وسمع نداءه » (١) .

ومما يدلّ على انتشار رقعة سلطتهـا ، ما ورد عن تغلاتفلاصر الاشوري من انه اجتاح في عهد ملكها رصين ، ست عشرة مقاطعة تابعة لها مع ٥٩١ مدينة (٢) . وظلّت مملكة دمشق زاهرة قابضة على زمام الامور في المنطقـة ، وظلّ نجمـها في صعود حتى نهاية ملكهـا حزئيل حيث أخذت بالانحطاط والتدهور حتى سقطت نهائيـاً وخضعت لسلطة الاشوريـين بعد حروب طويلة طاحنـة ، وقد تمّ ذلك نحـو سنة ٧٣٢ ق . م ، وبسقوط مملكة دمشق أفل

---

(١) المجلة البطريركية مج ٤ ص ٤٩٤
(٢) فيها ص ٤٩٧

نجم الآراميين الساطع . هذا وقد تنبأ عاموس النبي عن سقوط دمشق بقوله « هكذا قال الرب اني لأجعل معاصي دمشق الثلاث والاربع لا أردّها لأنهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد ، فأرسل ناراً على بيت حزئيل فتأكل قصور بنهدد » (١) . ونظراً الى أهمية هذه المملكة فقد أطلق عليها العهد القديم اسم « بلاد آرام » كأنما سائر الممالك الآرامية متمثلة فيها .

آرام دمشق والعبرانيون

ان تاريخ مملكة دمشق السياسي هو سلسلة طويلة من الحروب والمصادمات ، تتخللها بين حين وآخر فترات استقرار قصيرة الأمد خاضتها في جبهتين ، الجبهة الغربية مع العبرانيين ، وابتدأت منذ تأسيس المملكة وانتهت قبل سقوطها بمدة وجيزة ، ومعنى هذا ان دمشق كانت في صراع مستمر مع العبرانيين . والجبهة الشرقية خاضتها مع الآشوريين وقد ابتدأت في عهد ملكها برحدد الثاني وانتهت بسقوط دمشق في عهد ملكها رصين .

---

(١) ١ : ٣ ـ ٥

فالعبرانيون بعد خروجهم من مصر تمكّنوا ، بعد اشتباكات عنيفة ومتتالية مع الكنعانيين سكان فلسطين ، من احتلال قسم كبير من فلسطين واستوطنوه بعد أن نظموا أمورهم بشبه مملكة حكمها قضاة ثم ملوك ، الا انها انقسمت فيما بعد شطرين عرفا بمملكتي اسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب . وقد حاولوا توسيع منطقة نفوذهم على حساب الشعوب المجاورة فكان لهم ما أرادوا ، حتى ان دمشق نفسها سقطت في قبضتهم . غير ان أحد أبنائها الاشاوس ويدعى رزون وكان قائداً في جيش حددعزر ملك صوبا ، تصدّى لهم وأعادهم على أعقابهم وأنقذ دمشق من قبضتهم وأسّس مملكة دمشق الآرامية . وقد استمرّت الحروب بين الفريقين الآرامي والعبري فترة طويلة . وبذلك يكون لمعظم ملوك دمشق جولات عنيفة مع العبرانيين ، كان النجاح يحالفهم في معظم الاحيان .

رزون يتصدّى لسليمان

كان رزون قائداً في جيش ملك صوبا كما أسلفنا ، وقد تميز بالبأس والدهاء ، تخالجه نزعة الى الحرية والاستقلال . ولما مُني ملك صوبا بخسائر فادحة وهزم أمام العبرانيين ،

انتهز رزون هذه الفرصة وانفصل عنه بجمهرة من رجاله الشجعان وأعلن نفسه ملكاً على دمشق . وسرعان ما حمل روح الثأر من اسرائيل ، انتقاماً لكرامة قومه التي أهانتها خلال احتلالها لبلاد آرام . إذ كانت دمشق تؤدي الجزية لاسرائيل أبت عليه نفسه ان يبقى أبناء قومه تحت وطأة العبرانيين المغتصبين ، يسومونهم الذلّ والهوان ويمتصّون خيرات بلادهم . وفي هذه الأثناء كان سليمان قد خلف أباه داود ، ففتح رزون عهده بمحاربة سليمان ، فخاض معه معارك ضارية حالفه فيها النجاح . وبذلك تحرّرت دمشق كلياً من نير اسرائيل ورفع عنها الجزية التي كان الملك داود قد فرضها عليها اثر النجدة التي قدمها آراميو دمشق لحددعزر ملك صوبا في حربه مع داود والتي فيها انتصر داود وفرض عليهم العبودية والجزية (١) . وبالانتصار السحيق الذي أحرزه رزون على جيش العبرانيين عزّز دعائم مملكته فارتفع شأنها وأخذت الشعوب تنظر اليها نظرة احترام وتهيّب . ولهذا فان رزون يعتبر من ألدّ أعداء العبرانيين لأنه كسر شوكتهم وقلّص نفوذهم الذي كان قد امتدّ في عهد الملكين داود وسليمان الى دمشق وصوبا . وقد خلف

(١) اخبار الايام ، الاصحاح ١٨

رزون على التوالي ابناء حزيون وطبريمون ، ويبدو ان عهديهما كانا قصيرين ولم تتخللهما حوادث ذات شأن . فالعهد القديم لا يشير اليهما سوى عند الحديث عن برحدد الاول بن طبريمون حيث يقول انه ابن طبريمون بن حزيون (١)

برحدد الاول وازدهار البلاد

كان برحدد رجلا طموحاً وسياسياً محنكاً يعرف كيف يكسب الوقت لصالح امته ومملكته ، فلم يرض برقعة دمشق مملكة له ، بل عمل على توسيعها ، فاخضع حماة وممالك سورية المجوفة حتى سواحل فرات الغربية ونواحي حلب التي اكتشف بالقرب منها النصب الذي اقامه تكريماً لالهه ملقارت . واذا كان جده رزون قد استطاع ان يزيح كابوس العبرانيين عن دمشق ، فانه استطاع ان يجعلها تتمتع باستقرار تام وتزدهر في شتى الميادين . ولكن يجب الا ننسى ان الظروف خدمته الى جانب نشاطه وطموحاته واخلاصه لأمته ، فالخطر الاشوري كان قد زال عنها ولم يعد يهددها كما كانت الحال بالنسبة الى الممالك

---

(١) ٣ ملوك ١٥ : ١٨

الآرامية في شمال سورية ، وقد كانت في الوقت ذاتـه في مأمن من هجمات المصرانيين بسبب الخـلافات الناشئة بين مملكتي يهوذا واسرائيل . لذلك انصرف ملوكها في هذه الفترة الى تنشيط الحركة العمرانية ودفع عجلة الاقتصاد الوطني الى امام .

وبينما كان التطاحن في اوجه بين آسا ملك يهوذا وبعشا ملك اسرائيل ، في منتصف القرن العاشر ق.م ، ارسل آسا الى برحدد هدايا فاخرة وكنوزاً ثمينة من المعبد ومن القصر الملكي في اورشليم ، عارضاً عليه عقد تحالف ضد بعشا ، فاستجاب برحدد الى هـــذا العرض وهاجم اسرائيـل وأوقع الدمار في مدنها ، الأمر الذي ألزم بعشا على الكف عن مضايقة آسا . ويستفاد من سفر الملوك الثالث (٢٠ : ٣٤) ان برحدد استطاع ان يحصـــل من عمري ملك اسرائيل امتيازاً بفتح اسواق لمنتوجات بلاده في مدينة السامرة الـتي كان قد ابتناها عمري واتخذهـا عاصمة له . من هنا يظهر طموح هذا الملك ، ليس فقط في ما يخص ازدهار بلاده ، بل وفي توسيعها ايضاً . فقد عرفنا كيف انه أخضع البلاد الواقعة شمالي مملكته ، وهنا نراه يستغل الخلاف القائم بين آسا وبعشا ، فيفرض نفوذه

على مقاطعة راموث جلعاد شرقي الاردن ، وبذلك يكون قد أمن سيطرته على مملكتي يهوذا واسرائيل في ذات الوقت .

تضعضع دمشق في عهد برحدد الثاني

لقد خلف برحدد هذا اباه برحدد الاول ، وساقه طموحه الى خوض حرب طاحنة ضدّ اسرائيل ، الا ان الحظّ لم يحالفه ففشل في معظمها بالرغم مما اتصف به من قوة العزيمة . ففي عهد ملكها آخاب ، حاصر برحدد مدينة السامرة وأحاطها بجنوده من كل جانب وضيّق عليها الخناق، فحدث فيها ضيقٌ شديد فأوشك اهلها ان يموتوا جوعاً حتى صارت بعض النسوة تأكل اطفالها . ويخبرنا العهد القديم (١) ان الله لقصد منه ، اوقع الهلع ذات ليلة في قلوب الآراميين ، فاذا بهم وكأنهم يسمعون صوت مراكب وجيش عظيم ، فظنوا ان اخاب ألّب عليهم ملوك الحثيين والمصريين ، فهربوا تاركين وراءهم خيامهم وخيلهم وسلاحهم ، فغنمها الاسرائيليون .

---

(١) ٤ ملوك الاصحاح ٦ و ٧

وفي احدى غزواته على السامرة ، اصطحب معه اثنين وثلاثين ملكاً من الولايات الآرامية فحاصرها وحاربها ، ثم أرسل وفداً الى آخاب يطالبه بكل ما يملك من ذهب وفضة ونساء وبنين ، مهدداً اياه بكثرة وقوة جيشه ، غير ان آخاب لم يرضخ له ، بل حشد جيشاً قوامه سبعة آلاف مقاتل ، وبينما كان الآراميون مستغرقين في السكر ، وفي غفلة منهم ، انقضّ عليهم بعض ضباط آخاب وقتل كلٌ واحد منهم رجلاً من الآراميين ، فدبّ الذعر في صفوفهم وهربوا جميعاً بما فيهم ملكهم برحدد ، فتتبعهم العدو وألحق بهم خسائر جسيمة ، بيد ان ملك آرام أعاد الكرة في السنة التالية ، فالتحم جيشه بجيش آخاب الا انه اندحر . وفقد الآراميون في يوم واحد مئة الف رجل وفرّ الباقون ، والتجأ برحدد الى المدينة فعفا عنه آخاب واطلق سراحه بعد ان وقع معاهدة منح بموجبها امتيازاً لآخاب بان يقيم له اسواقاً في دمشق كالتي كان للاراميين في السامرة في ايام برحدد الاول . غير ان هذه المعاهدة كانت مخالفة لأمر الله ، لذلك فقد تنبأ احد الانبياء عن اندحار آخاب امام الآراميين (١) .

(١) ٣ ملوك الاصحاح ٢٢

اما السبب الذي حدا آخاب الى عقد المعاهدة المذكورة مع عدوه الآرامي فكان شعوره بخطر الملك الآشوري شلمناصر الثالث الذي اخذ يزحف نحو سورية ، فحاول آخاب كسب ودّ ملك آرام لكي يقف حاجزاً امام تقدم الآشوريين نحو بلاده ، حيث كان آخاب يخشى بأس الاشوريين كثيراً . بيد ان معاهدة الصلح المشار اليها لم تدمْ اكثر من ثلاث سنوات ، اذ نقضت على اثر محاولة آخاب استرداد مقاطعة راموث جلعاد التي كان برحدد الاول قد ضمّها الى مملكته . وتحقيقاً لرغبته هذه استنجد آخاب بيهوشافاط ملك يهوذا فانجده ، فجرد حملةً ضد الآراميين ، واحتدم القتال بين الجانبين في راموث جلعاد فأصيب آخاب في ساقه ، لكنه ظل يراقب القتال عن كثب حتى غروب الشمس حيث فارق الحياة متأثراً بجراحه (١)

حادثة القائد نعمان وأثرها في نفس برحدد

يروي لنا العهد القديم حادثة طريفة عن قائد جيش برحدد المدعو نعمان والذي ينعته العهد الجديد بـ « **نعمان**

---

(١) ٤ ملوك الاصحاح ٥

السرياني » ، ذلك بانه ابتلي بمرض الجذام ولم يكن له من شفاء ، الا ان جارية يهودية كان قد غنمها في احـــدى غزواته ، اشارت الى مولاتها بامكانية شفاء سيدها ان هو اتصل بنبي ذائع الصيت في فلسطين ، فتزود نعمان بكتاب توصية من الملك برحدد الى ملك اسرائيل وشخـص اليه حاملاً هدايا نفيسة . فلما اطلع ملك اسرائيل على الكتاب ظن ان وراء الاكمة ما وراءها ، وان ملك آرام سيتخذ من عدم شفاء قائد جيشه ذريعة لمحاربته والايقاع به ، إلا ان بعض حاشيته اشاروا اليه ان يرسل القـائد نعمان الى اليشع النبي . ولما انتهى الخبر الى النبي المذكـور اوعز الى الرسل الذين اوفدوا اليه بان يوعـزوا بدورهم الى نعمان ليذهب الى نهر الاردن ويغتسل فيه سبع مرات فيـبرأ . وبهذه الكيفية تم شفاؤه من مرضه فآمن بإله اليشع وآلى على نفسه الا يقدم اية تقدمة لغير الاله الواحد .

ان هذه الحادثة تركت ولا شك أثراً بعيـــداً في نفس برحدد ، وخلقت فيه ثقة عظمى بقدرة إله اليشع ، لذلك فإذ اصيب هو الآخر بمرض خطير ، وعلم بوجـود اليشع في دمشق يومذاك ، ارسل اليه حزئيل احـد كبار رجال بلاطه مثقلاً بالهدايا النفيسة ، ليسأله عما اذا كان

سيبل من مرضه هذا ام لا ؟ فأنبأ اليشع الرسول بان سيده سيفارق الحياة ، وانه — اي حزئيل — سيخلفه على عرش مملكة آرام . الا ان حزئيل لم يصدق في نقله الخبر لسيده ، إذ أخبره بانه سيبرأ ، وفي اليوم التالي اغتاله هو نفسه حيث اجهز عليه وهو راقد على سريره ، وملك مكانه (١) .

حزئيل يتسلم السلطة

قيل ان حزئيل كان ابن برحدد الثاني ، وقيل بل عبده او احد كبار مستشاريه . ومهما يكن من امر فانه كان يتمتع بنفوذ كبير في البلاط الملكي ، وكان على جانب كبير من القسوة والعنف . فهو لا يتورع من ارتكاب ابشع الجرائم في سبيل بلوغ مآربه . ويبدو انه كان شديد الطمع في الملك . وحاول تجسيد مطمعه هذا بشتى الوسائل . فشرع يعمل على ازاحة برحدد والقضاء عليه مهما بلغ الثمن ومهما كانت الوسيلة ، حتى اذا اشتد المرض على برحدد ، رأى حزئيل ان الفرصة مؤاتية لنيل مآربه،

(١) ٤ ملوك ٨ : ١٥

فقضى عليه ، كما اشرنا ، وتسلم زمام السلطة .

كان حزائيل شديد الكره لليهود ، لذلك فان اليشع النبي ، عندما انبأه بتسلمه مقاليد الامور في دمشق ، فعل ذلك بشيء من الالم مصحوباً بالبكاء ، اذ رأى ان حزائيل سيسيم اليهود أمرّ العذاب . وقد صرح اليشع لحزائيل بذلك قائلاً : « اني علمت بما ستصنعه ببني اسرائيل من السوء ، فانت ستحرق حصونهم بالنار وتقتل فتيانهم بالسيف وتشدخ اطفالهم وتشق حبالاهم » (١) . والى حزائيل هذا ارسل الله ايليا النبي ليمسحه ملكاً على آرام (٢)

حزئيل يلقن اسرائيل درساً قاسياً

لقد خاض حزائيل معارك دامية مريرة مع اليهود ، اورد العهد القديم تفاصيلها ، ومنها نقف على ما كبّدهم من خسائر فادحة ، وما سامهم من عذاب وتقتيل وتدمير ، حتى انه لم يبق لاسرائيل في عهد ملكها آحاز بن ياهو من الجيوش اكثر من خمسين فارساً وعشرة مراكب وعشرة

(١) ٤ ملوك ٨ : ١٢

(٢) ٣ ملوك ٨ : ١٦

الاف راجل . فقد أبادهم جميعاً وجعلهم مثل التراب الذي يوطأ . ويعتبر حزئيل اعظم محارب آرامي بلا منـازع ، استطاع بشجاعته وعناده ان يوسع مملكته ويعيد اليها ثانية راموث جلعاد التي كان الملك اخاب قد استرجعها من سلفه برحدد الثاني (١) . وقد حاول اخزيا ملك يهوذا استرداد هذه المنطقة من الآراميين فتحالف مـــع يورام بن آخاب وخرج لمحاربة حزئيـــل في راموث جلعاد فاصيب يورام وعاد الى يزرعيل لعلاج اصابته ، فعاده هناك اخزيا ، الا انه قضى بسبب تلك الاصابة .

وبعد استقرار لم يدم أكثر من بضع سنوات ، وفي ايام يواحاز بن ياهو ملك اسرائيل ، اجتـاز حزئيل نهـر الاردن وضايق اسرائيل مضايقة اليمة ، فالتجأ يواحاز الى الله فانقذهم من الاراميين (٢) . الا ان حزئيل ، بعد ان استتب له الامر عبر الاردن ، وأغار على ارض فلسطـين ففتح مدينة جت (٣) التي كانت قـد ظلت خارج نطـاق

---

(١) ٤ ملوك ١٠ : ٣٢

(٢) ٤ ملوك ١٣ : ٤

(٣) من أعظم مدن فلسطين ، تميز أبناؤها بطول القامة وكانت حصناً حصيناً للفلسطينيين (قاموس الكتاب المقدس) .

نفوذ الاسرائيليين حتى عهد الملك داود ، ثم يمّم شطر اورشليم ، فما ان علم يواش ملك يهوذا بجسامة الخطب حتى جمع كل الآنية الذهبية المقدسة وكل الذهب الموجود في خزائنه وقدمها هدية لحزئيل فانصرف عن اورشليم (١) . وهكذا نرى هذا الملك الآرامي يصول ويجول في ارجاء مملكتي العبرانيين دون ان يواجه مقاومة تذكر . ولكن يجب الا ننسى ان حزئيل ما كان له ان يبلغ هذه الدرجة من العظمة ، لولا انشغال الآشوريين في قمع ثورات ممالك اخرى في الشمال مثل اراراطو وقيليقيا وسواهما .

بوادر الانحطاط في مملكة دمشق

يذكر العهد القديم ان برحدد الثالث خلف اباه حزئيل في السلطة ، ثم مات حزئيل ملك آرام وملك برحدد ابنه مكانه (٢) ، وكان هو الاخر طموحاً الا انه لم يستطع ان يحقق طموحاته بسبب ضغط الآشوريين على بلاد آرام . فقد نسج على منوال ابيه في مضايقة العبرانيين في الشمال ، الا ان يواش الذي خلف اباه يواحاز على

(١) ٤ ملوك ١٢ : ١٧ و ١٨
(٢) ٤ ملوك ١٣ : ٢٤

مملكة يهوذا تمكن من استعادة المدن التي كان حزئيل قد احتلها في عهد يواحاز كما مرّ معنا .

ويرى دوبونت ان « ماري » ملك دمشق الذي ورد اسمه في الكتابات الآشورية هو برحدد الثالث نفسه(١) وهو الذي اخضعه اداد نيراري الثالث الآشوري في احدى غاراته على بلاد آرام وبخاصة دمشق ، شنها خلال ثلاثة اعوام ٨٠٥ - ٨٠٢ ق.م ، واخذ منه ٢٣٠٠ مثقال فضة وعشرين مثقال ذهباً وثلاثمئة مثقال نحاس و ٥٠٠٠ مثقال حديد ، بالاضافة الى أقمشة متنوعة الالوان مصنوعة من الكتان ، وأسرّة ومقاعد من العاج المطعّم بالذهب والمرصع بالحجارة الكريمة ، وذلك بحسب ما ورد في احدى كتابات اداد نيراري نفسه (٢) .

فشل رصين في السيطرة على زمام الامور

كان رصين آخر ملوك آرام دمشق ، وقد ملك حوالي سنة ٧٤٥ ق.م ، واذ وجد نفسه في حالة لا

---

(١) الآراميون .
(٢) المصدر نفسه

تشجعه على توسيع بلاده او إثارة حروب ضدّ الشعوب المجاورة ، اتخذ موقف الدفاع ازاء الغارات الآشورية . فقاوم الآشوريين بضراوة وأبى الاستسلام لهم حتى بعد بسط نفوذهم على معظم الممالك الآرامية في الشمال ، الا ان تغلاثفلاصر ملك آشور ، بعد ان تمّ له اخضاع تلك الممالك وجعلها ولايات آشورية تدين له بالولاء ، وجّه انظاره نحو دمشق بقصد اخضاعها هي الاخرى . واذ شعر رصين بالخطر الآشوري الذي اخذ يهدده ، حاول تشكيل حلف ثلاثي ضد ملك آشور يضم بالاضافة اليه كلاً من آحاز ملك يهوذا وفقح ملك اسرائيل ، الا ان الملك آحاز أبى الدخول في هذا الحلف خشية بطش ملك آشور ، مظهراً استعداده لتقديم الخضوع للغازي الآشوري . فلم يبقَ بدّ امام رصين وفقح من اكتساح مملكة يهوذا وخلع آحاز وتنصيب ملك آخر بدلاً منه يدين لهما بالولاء، وقد اختارا رجلاً آرامياً يدعى « بن طابئيل » كما جاء ذلك صريحاً في سفر أشعيا النبي « فان آرام وافرايم وابن رمليا (فقح) قد تآمروا عليك (آحاز) بالسوء قائلين لنصعد على يهوذا ونخضعها ونمزقها بيننا ونملك عليها ابن

طابئيل » (١) . ولكن بالرغم من هذا الاجراء فشلا من حيث النتيجة . ذلك بان آحاز التجأ الى تغلاثفلاصر فجمع كل ما كان موجوداً في بيت الرب وخزائن بيت الملك من فضة وذهب واموال اخرى ، وأرسلها هـــدية اليـه مع رسالة جاء فيها « انا عبدك وابنك فاصعد وخلصني من يد ملك آرام ويد ملك اسرائيل القائمين علي » (٢) فاستجاب له تغلاثفلاصر واتجه نحو اسرائيل واحتلها ثم احتـل غـزة فهـــرب ملكهـا الى مصر ، وجـلا كثـيرين من اهلهـا الى آشور .

الغزوات الاشورية لدمشق

اذا كان العهد القديم هو المصـــدر الأول والأهم لتاريخ العلاقات بين الآراميين والعبرانيين ، فان المـدونات الآشورية تمثل هذا المصدر بالنسبة الى العلاقات الآرامية ـ الآشورية . ومنها نعلم ان الآراميين في دمشـق ظلوا فـترة لا بأس بها في مأمن من غزوات الآشوريين التي لم تتعدّ

(١) اشعيا ٧ : ٦
(٢) ٤ ملوك ١٦ : ٧

في بادىء أمرها الممالك الآرامية الصغيرة المتاخمة لحــدود بلادهم ، الا ان طموحهم في توسيع ارجاء امبراطوريتهم ، لا سيما بعد ان قويت شوكتهم ، ورغبة شلمناصر خاصة في اكتساب الشهرة والمجد ، ومن اجـل القضاء على الثورات المحلية التي كانت تقوم بها تلك الممالك الصغيرة بين الحـين والآخر ، كل ذلك حفزهم على اجتياز نهر الفرات والتقدم نحو آرام دمشق وفلسطين ، وكان ذلك في اوائل عهـد ملكهم شلمناصر الثالث (٨٥٩ — ٨٢١ ق.م) الذي اراد ان يخضع مملكة دمشق بعد ان اخضع اسلافه مملكتي بابل واراراطو المحيطتين بامبراطوريته .

فشلمناصر الثالث اذن هو اول ملك آشوري يقـوم بأول غزوة على آرام دمشق وذلك في عهد برحـدد الثاني الذي عقد مع آخاب ملك اسرائيل معاهدة صلح وتحالف عندما علم ان شلمناصر يزحف نحو سورية علماً منه بقـوة الآشوريين وهول جيشهم ، وهكذا يكون قد احتاط لكل احـتمال سيئ . الا ان شلمناصر لم يستطع الوصول الى دمشق ، لأن الممالك الآرامية الصغيرة المتواجدة في طريقه اتعبته كثيراً اذ وقفت حاجزاً في سبيل تقدمه نحو سورية

الداخلة ، لذلك حمل عليها اولاً واكتفى باخضاع عدد منها ثم عاد الى بلاده .

وفي سنة ٨٥٣ ق . م أعاد الكرة فاجتاز نهر الفرات ووجهته سورية . ولما علم برحدد بالامر وشعر بفداحة الخطر الذي يهدد بلاده ، ألب الملوك الآراميين ضد الآشوريين في تحالف آرامي ضم اليه ايضاً بعض جيوش الفينيقيين والعبرانيين والعرب حتى بلغ عدد المقاتلين ٧١٩٠٠ جندي ، الى جانب المركبات الحربية والخيول والجمال . وهذه تفاصيلها كما وردت في احدى مدونات شلمناصر نفسه : من ملك دمشق ١٢٠٠ مركبة و ١٢٠٠ حصان و ٢٠٠٠٠ جندي . ومن ارحوليني ملك حماه ٧٠٠ مركبة و ٧٠٠ حصان و ١٠٠٠٠ جندي . ومن آخاب ملك اسرائيل ٢٠٠٠ مركبة و ١٠٠٠٠ جندي . ومن ملك قيليقيا ٥٠٠ جندي . ومن ملك مصري (في شمال سورية) ١٠٠٠ جندي و ١٠ مركبات . ومن ملك ارقه (تل عرقا بالقرب من طرابلس) ١٠٠٠٠ جندي و ١٠ مركبات . ومن ماتينو ملك ارواد ٢٠٠ جندي .

ومن ملك اوسنو (على ساحل البحر المتوسط) ٢٠٠ ومن ادونا ملك سيانو (على ساحل البحر المتوسط) ١٠٠٠٠ جندي و ٣٠ مركبة . ومن جنديب ملك العرب ١٠٠٠ جمل . ومن بعشا ملك العمونيين ١٠٠٠٠ جندي .

وزحف برحدد بهذه الجيوش الجرارة والمعدات الحربية الهائلة نحو الشمال لملاقاة جيش شلمناصر الزاحف نحو بلاده ، وتمركزت الجيوش المتحالفة عند موقع قرقر على نهر العاصي ما بين حلب وحماه ، واخذت مواقعها بانتظار الجيش الاشوري . ولدى وصول هذا الجيش المجهز بأحسن المعدات الحربية يومذاك ، التحم الجانبان في معركة طاحنة ، لكنها لم تكن حاسمة . رجحت فيها كفّة الآشوريين وتبدّد شمل الجيوش المتحالفة ، وقد قيل انهم خسروا في تلك المعركة ١٤٠٠٠ جندي . غير ان شلمناصر بالرغم من احرازه هذا النصر ، لم يتمكن من احتلال الممالك الآرامية الكبرى مثل حماه ودمشق ، بل قفل راجعاً الى بلاده مصطحباً ما غنمه منهم من عربات وخيول واسلحة ، ولا بدّ انه تكبد هو الآخر خسائر فادحة بحيث انه لم يعد بمقدوره متابعة برحدد الى دمشق او ارحوليني الى حماه .

شلمناصر يواصل حملاته على دمشق

ان شلمناصر ولئن عاد الى بـلاده دون ان يحقـق اهدافه كاملة وبالشكل الذي أراده ، الا ان أنظاره ظلت متعلقة بدمشق ، ولم تفارقه نزعته الى احتلالها واخضاعها له ، وهذا ما يفسر تجشمه اعباء عبور نهر الفرات ثماني عشرة مرة متوالية بغية الوصول الى ربوع دمشق الساحرة، هذا من جهة . ومن جهة اخرى كانت اخبار انتصارات حزئيل ملك دمشق وتوسعه الكبير على حساب العبرانيـين وشهرته المستفيضة ، تقضُّ مضجعه وتحفزه على العمل على طمس معالم تلك الشهرة والقضاء على النفـوذ الذي كان يتمتع به حزئيل في تلك الديار . لذلك قرر توجيه ضربة اليه مهما بلغ الثمن . فقام بحملتين عنيفتين ضد حزئيل ، الاولى سنة ٨٤١ ق.م وهي السنة الثامنة عشرة من ملكه، وأعقبها بأخرى بعد اربع سنوات . وقـد جاءت تفاصيـل المعارك الضارية التي خاضها شلمناصر مع جيش حزئيـل الدمشقي في إحـدى المدونات الآشورية الخاصـة باعمـاله وغزواته ، وفيها يقول شلمناصر : انه في السنة الثـامنـة عشرة من ملكه عبر الفرات للمرة الثامنـة عشرة والتقى

جيش حزئيل العرمرم عند سفوح جبل حرمون (١) فدارت بينهم معركة ضارية انتصر فيها شلمناصر ، وقتل من جيش حزئيل ستة آلاف جندي ، وغنم ١١٢١ مركبة و ٤٧٠ حصاناً ، واحتلّ بعض مواقعه وثكناته ، ولاذَ حزئيل بالفرار فتعقبه حتى دمشق حيث اوقع الدمار في غوطتها ، ثم تقدم نحو منطقة حوران ودكّ جميع مدن آرام ثم عاد الى بلاده بغنائم كثيرة وثمينة (٢) . ويبدو انه لم يستطع اقتحام اسوار دمشق اذ لم يذكر انه دخل دمشق بل وصل الى ضواحيها فقط .

وبعد اربع سنوات من تاريخ هذه الحملة ، شنّ شلمناصر حملة اخرى ضد حزئيل واكتسح بعض مدن مملكة دمشق ، الا انه لم يستطع فرض كامل سلطته على دمشق بالرغم من الانتصارات التي حققها ، بل ظلت تتمتع باستقلالها وائن اخذ نفوذها بالتقلص ولا سيما بعد وفاة حزئيل .

---

(١) يعرف اليوم بجبل الشيخ .

(٢) الآراميون

نهاية مملكة دمشق

لقد مر معنا ان آحاز ملك يهوذا استنجد بتغلاثفلاصر الآشوري لينقذه من مؤامرة رصين ملك دمشق وفقح ملك اسرائيل التي دبراها لازاحته عن الملك وتنصيب عميل لهما . وإذ استجاب تغلاثفلاصر له ، قاد حملة واتجه اولا نحو مملكة اسرائيل فاحتلها ، ثم صوب وجهته نحو دمشق . اما رصين فاذ علم بما آلت اليه حالة فقح ، تحالف مع حور ملك صور ، وملك عسقلان ، وشمسي ملكة العرب وتحصّن في جبال لبنان الشرقية ، الا ان تغلاثفلاصر سدّد اليه ضربة أليمة هرب على اثرها ودخل عاصمته دمشق فتبدّد شمل جيشه . وقد دوّن تغلاثفلاصر اخبار هذه المعركة . ومما قاله عن هرب رصين « انه هرب الى مدينته وحيداً مثل فارة » (١) . وبعد ان نكل تغلاثفلاصر بحلفاء رصين وقواده تتبعه حتى دمشق . واذ كانت محاطة بأسوار منيعة ومزوّدة بمعدات حربية

---

(١) المصدر نفسه

دفاعية وجيوش ، حاصرهـــا مدة ثم تمكـن من اقتحام الاسوار ، فدخلت جيوشه المدينة والقى القبض على رصين وقتله ، وسبى عدداً كبيراً من ابنائها الى منطقة قـير (١) وأخذ يعيث فيها الفساد فلم يُبقِ ولم يذرْ من كل ما نالته يده ، واكتسح جميع بساتينها الغنّاء الشهيرة (الغوطة) واحتلّ عدرا في ضواحيها وكانت أحد القرّات الملكية . ثم اجتاح المقاطعات اللائذة بها وعددها آنذاك ستعشرة ، ودمّر ٥٩١ مدينة تابعة لمملكة دمشق ، واخيراً جعـــل دمشق مقاطعة آشورية اسوة بغيرها من الدويلات الآرامية . وكان ذلك سنة ٧٣٢ ق.م . وهكذا سقطت دمشق وانهار مجدها وانتهى استقلالها الذي استمرّ نيف وثلاثمئة سنة ، فطويت بذلك صفحة من انصع صفحات تاريخ الآراميين .

---

(١) ٤ ملوك ١٦ : ٩

مملكة شمأل (١)

تعتبر مملكة شمأل من اكبر الممالك الآرامية الشمالية احتلت المنطقة الممتدة ما بين حلب وجبل طورس المنتهية عند جبل امانوس جنوبي عنتاب . ويعزى تأسيسها الى كبارا زعيم إحدى كبريات القبائل الآرامية ، فنسبت اليه اولاً حيث دعيت بيت كباري (بيت الجبابرة) ، كما عرفت ايضاً باسم « يعودى » . وقد ورد هذا الاسم في الكتابة التي خلفها كيلامو احد ملوك شمأل وجاء فيها « ان

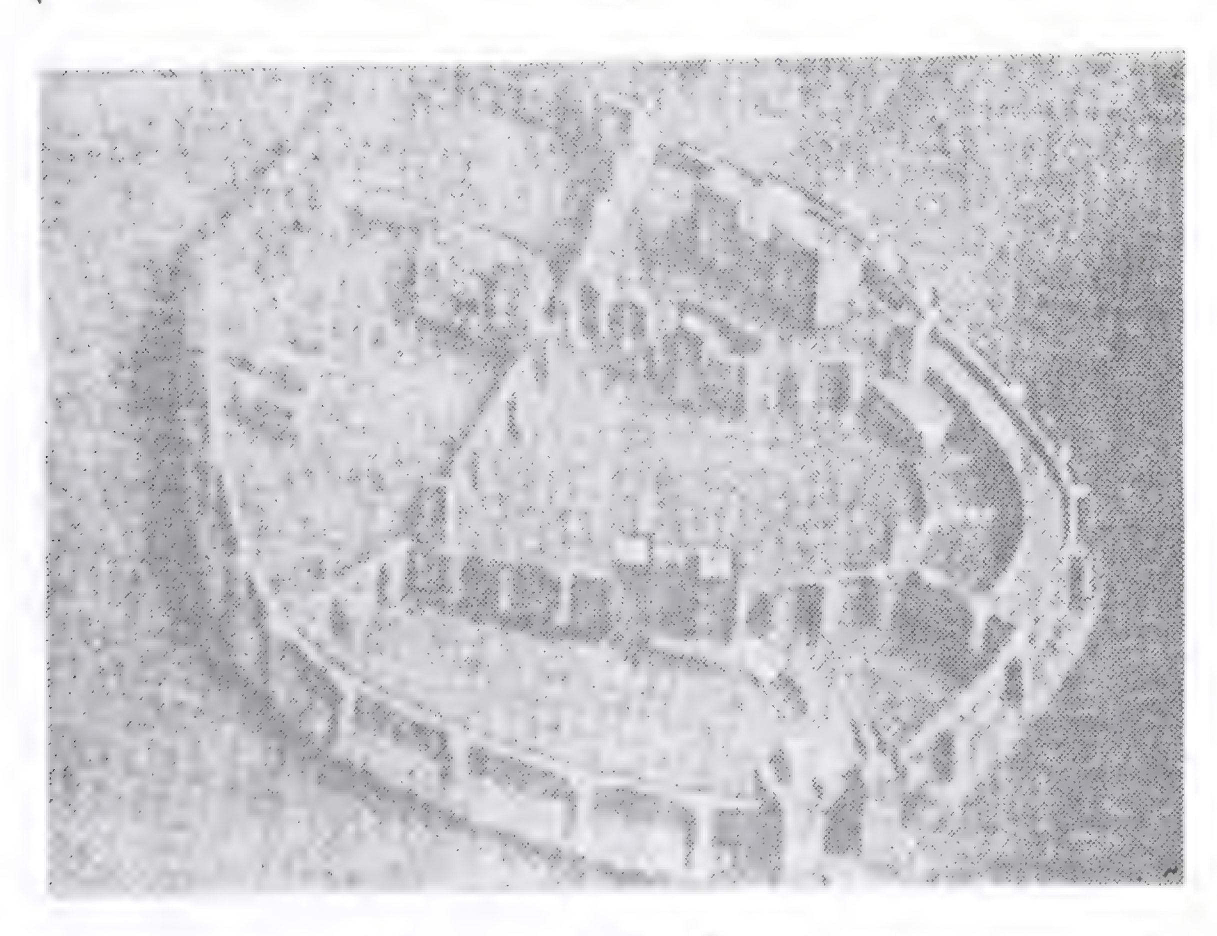
---

(١) كلمة آرامية مؤلفة من مقطعين شم ـ ايل اي اسم الاله . وقد ورد اسم هذه المملكة في المراجع العربية باسم سمالو . فقد ذكرت هذه المراجع في سياق حديثها عن الفتوحات في المئة الثانية للهجرة ، بلدة قديمة باسم سمالو او صمالو في شمال شرقي خليج اسكندرونة ، وتعرف اطلالها اليوم باسم زنجرلي (كوركيس عواد ـ مجلة مجمع اللغة السريانية مج ٢، ٩٧٦ ص ٦٥) . ولما فتح العرب هذه البلدة في عهد المهدي سنة ٧٧٩ م سأل اهلها الامان فاجيب الى سؤالهم وجيء بهم الى بغداد وخصهم المهدي بموضع امر ان يطلق عليه اسم سمالو . وفي هذا الموضع بنوا ديراً عرف بدير سمالو (نفس المصدر) .

كبارا حكم على يعودى » . اما زمن تأسيسها فمختلف عليه فقد أرجعه بعضهم الى القرن الخامس عشر ق.م اي فترة ظهور الآراميين ، في حين جعله غيرهم القرن العاشر ق.م. ونحن نرى ان الرأي الاخير أصوب لعدة اعتبارات :

١ ـ لم يكن الآراميون في ظروف تمكنهم من تأسيس مملكة قبل القرن الثاني عشر ق.م

٢ ـ ان الحفريات التي اجريت في تلك المنطقة لم



آثار سور حصن الشمأل الآرامي في شمال غربي سورية

تسفر عن اي دليل يشير الى وجودها في القرن الخامس عشر ق.م ، كما ان التـاريـخ غفـل عنها حـتى القرن العاشر ق م .

٣ ـ ان كبارا الذي اليه يُعزى تأسيس هذه المملكة هو جدّ الملك حاني الذي عرف في النصف الاول من القرن التاسع ق.م .

ان هذه المملكة لم تكن لتتمتع باستقلال تام طيلة فترة وجودها الذي استمر نحو ثلاثة قرون ، حيث انها انقرضت في أواخر القـرن الثامن ق.م على يد شلمنـاصر الخامس ما خلا فترات متقطعة ، انشغل فيها الآشوريون في قمع الفتن الداخلية . وكانت عاصمة المملـكة شمأل ، من المدن المهمة وقد احيطت بسور فخم منيـع ما زالت آثاره ماثلة للعيان (١).

ويبدو ان ملوك آشور أولوا هـذه المملـكة اهتماماً بالغاً ، فاكثروا من ذكرها في كتاباتهم المسمارية التي دوّنت في عهود مختلفة ، كما اكتشف في اطلالها رسم يمثل ملكاً

---

(١) العرب واليهود في التاريـخ ص ٦١

آشورياً وبيده زهرة اشارة الى سيطرته على العالم ، حتى ان مسلة سرجون الثاني اكتشفت في هـذه المنطقة والـتي نقش عليها باللغة الآشورية وبالخط المسماري تفاصيل الحمـلة الآشورية على اسرائيل التي انتهت بالقضاء عليها . وقد عثر عليها هي الاخرى بين اطلال شمأل سنة ١٨٤٣ (١) .

الحالة السياسية في شمأل

ان اطماع الآشوريين التوسعية لم تكن لتقف عنـد حدّ ، فكانت محاولاتهم للقضاء على الدويلات الصغـــيرة تتكرر كلما سنحت لهم الفرصـــة ، فاذا ما تمّ لهم ذلك جعلوا من تلك الدويلات ولايات آشـورية يتولاها حـكام آشوريون ، او يولون عليها من ابنائها من يدين لهم بالولاء والعمالة ، ويعزلون من يلمسون فيه الروح الوطنية . وهذا كان شأنهم بالنسبة الى ملوك شمأل الذين لم يكـــونوا على مستوى المسؤولية ، فأهمـــلوا شؤون البلاد حتى اصبحت مطمح انظار الدول المجاورة . اما فترات السلام والازدهار التي كانت تمرّ فيها بين الحين والآخر ، فلم يكن مردها

---

(١) فيه ص ٣٠٧

كفاءة الملوك واخلاصهم لوطنهم ، بـــل كان انهاك الدول المجاورة في العمل على استتباب أمنها الداخلي . فان « ياماه » وهو ثاني ملوك شمأل كما تشير كتابة كيلامو الـتي اوردت اسمه بعد كبارا مباشرة ، لم يكن يملك ما يؤهـله لادارة البلاد ، وقد قال عنه كيلامو في كتابته المذكورة انه « لم يستطع ان يصنع شيئاً » طيلة فترة حكمه . كما ان ابنـه حباني الذي خلفه لم يكن بافضل منه ، لذلك استغـــل شلمناصر الثالث ضعفه وغزا مملكته وأخضعها عام ٨٥٣ق.م وفرض عليه جزية باهظة . ولم يستطع ابنه شمائيـل الذي خلفه ان يخفف من عبء الجزية اذ لم يختلف عن أسلافه في الجبن والخنوع ، وقد اشار اخوه كيلامو الى عجـزه حيث قال « ان اخي شمائيل لم يعمل شيئاً » اما كيلامـو الذي خلف أخاه شمائيل في النصـف الثاني من القـرن التاسع ق.م والذي ترك كتابتين هامتين ، فلئن كان اوفر حظاً ممن سبقوه ، الا انه لم يتمكن هو الآخر من ازاحة كابوس الآشوريين عن كاهل بلاده ، بل اضطر الى ان يستنجد بشلمناصر الثالث ضد ملك الدانونيين (قيليقيـا) الطامع في خيرات بلاده والذي تحالف مع مـلوك آخـرين وشددوا عليه الخناق ، كما صرح في كتابة له بقوله « كان

بيت أبي محاطاً بملوك اقوياء وكلهم شرعوا يقاتلونني » (١) وقد سلبوا منه اشياء كثيرة من ماشية وأقمشة وغيرهـا ، الامر الذي دعاه الى الالتجاء الى ملك آشور ، فاجـــبر الاخير الملوك الطامعين على التراجع وعـوض لكيلامو عن كل خسائره . وقد برر كيلامو لجـــوءه الى ملك آشور بقوله : ان الذين احاطوه كانوا أقوياء ، وكان ملك الدانونيين قديراً ومسلطاً عليه .

اما بنامو الاول فقد حالفه الحظ بعض الشيء فنعم عهده بشيء من الاستقرار والسـلام ، وذلك بسبب الفتن الداخليـة الـتي اشتعل اوارها في ارجاء الامبراطـــورية الآشورية في اواخر عهـــد اشوردان الثالث . ففي هذه الفترة تمكن بنامو من اقامة تمثال للاله حـدد نقشت عليه كتابة تشيد بما ساد البلاد في عهده من ازدهار واستقرار جاء فيها ان الشعير والحنطـة ينبتان على ما يرام ويفلـــح الأهلون الكروم ويشيـــدون المدن (٢) . لكن الفوضى عادت لتسود على البلاد في اعقاب اعتلاء ابنه برصور عرش

---

(١) الآراميون .

(٢) المصدر نفسه .

المملكة ، حيث تآمر عليه احد زعماء البلاد يدعى عزريو نحو سنـة ٧٣٩ ق.م واغتصب الملك وقضى على افـــراد العائلة المالكة وزج اعوان الملك ورجالاته في السجون ، وقد فعل ذلك بحجـة ان برصـــور عاجز عن رفـع عار الاستعمار عن البلاد ، فشكل حلفاً مع الدويلات المجاورة بقصد مقاومة الغزو الآشوري فاعلن العصيان ، الا انه سرعان ما ادرك انه لن يفلح في مغامرته هذه ، فطلب الى حلفائه عرض هدايا مغرية على ملك آشـور الذي رفـض هداياه واكتسح البلاد وقضى على الحركة والقى القبض على عزريو المغتصب واعدمه واعاد الملك الى اصحابه الشرعيين، فاقام بنامو الثاني بن برصور ملكاً على شمأل وهو الشخص الوحيد الذي نجا من بطش عزريو . لذلك كان مواليـــاً وعميلاً كبيراً لملك آشور وقدم له مساعدات عسكرية جمة ، وكان يرافقه في غزواته . وقد لقي حتفه في الحمـلة الـتي شنها تغلاثفلاصر الثالث ضد دمشق عام ٧٣٣ فنقل جثمانه الى بلاده ودفن بمراسيم خاصة . وقد جاء في الكتابــــة المنحوتة على تمثاله عن هذه المراسيم « بكاه اخوانه الملوك وبكته جيوش سيده ملك آشور كلها » ونظراً الى موالاته العمياء لآشور فقد اقتطع تغلاثفلاصر جـزءاً من مملكـة

كركم وضمها الى بلاده ثم اقام ابنه بر ركب خلفاً له ، وقد حذا الاخير حذو ابيه في موالاته للآشوريين ، لذلك عاش في بحبوحة ورغد . ويبدو انه كان آخر ملوك شمأل اذ لا يوجد ذكر لملك آخر بعده ، وربما تكون وفاته قد حلت في عهد شلمناصر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م) ، وبوفاته تكون شمأل قد انقرضت حيث لا ذكر لها في مدونات سرجون خليفة شلمناصر الخامس . وهذا ما دعا دوبونت الى الاعتقاد بان هذه الدويلة انتهت في ذلك العهد (١) .

آثار وكتابات هامة (٢)

لقد اسفرت التحريات الاثرية التي اجريت في زنجرلي (اطلال شمأل) سنة ١٨٨٨ - ١٨٩٠ م ، عن اكتشاف آثار قيمة من جملتها رسم بارز يمثل الملك بر ركب جالساً على العرش والى جانبه كاتم اسراره ، والى جانب آخر سبائك من ذهب وفضة ، وتمثال آخر يمثل ملكاً اشورياً

(١) المصدر نفسه .

(٢) اعتمدنا النصوص الواردة في كتاب «الآراميون» انظر الملحق

ومسلة سرجون الثاني . غير ان الاكثر اهمية في هذه الآثار هو بضع كتابات تكشف عن جانب مهم من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في البلاد ، ابرزها ثلاث وهي كتابة كيلامو ، وكتابة بنامو وكتابة بر ركب .

١ - كتابة كيلامو : وهي اهم الوثائق المكتشفة في شمأل ، كتبت باللغة الفينيقية ، وهي قسمان : الاول في تسعة عشر سطراً والثاني في ستة وعشرين سطراً ، نقشها الملك كيلامو على بلاطة عمودية في القصر الملكي . يتحدث في القسم الاول عن الوضع السياسي في البلاد ، فيوجه انتقاداً لاذعاً الى اسلافه الذين فشلوا في ادارة شؤون البلاد فلم تحرز اي تقدم في عهدهم . ويصف نفسه بالرجل القوي الذي تمكن من قهر اعدائه ولكن بواسطة ملك الآشوريين الذي يقول عنه انه « استأجره من ملك الدانونيين » . ويقول انه اعاد الاستقرار الى البلاد بعد ان كان مفقوداً بسبب معاداة الدويلات المجاورة التي اعتادت ان تغزو بلاده وتعيث فيها الفساد ، كما انه استرد اضعاف ما كان قد فقده . فقد ردّ اليه ملك آشور « امرأة فتية عوض خروف ورجلاً عوض ثوب » .

اما القسم الثاني من الكتابة فيتحـدث عن حالة البلاد الاجتماعية والاقتصادية ، فيصور كيلامو نفسه رجلاً انسانياً يشيع العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب ويحدب على المحتاجين ويرعى شؤون الذين لا نصير لهم . فقـــد نهض بالطبقة العاملة التي كانت حالة ابنائها سيئة جداً حتى انهم كانوا « يرودون مثل الكلاب » فصار يعاملهم بالحسنى، ما حداهم الى الوثوق به والاطمئنان اليه . ويقول في هذا الصدد « انا اخذت بيد الموشـكاب (الطبقة العامـــلة) فانقادوا الي كما ينقاد اليتيم الى امه ، فصرت لهذا اباً ولهذا اماً ولآخر اخاً . ثم يطرى حالة الرخاء المنقطع النظير التي عمت البلاد في ايامه فيقول « من لم يكن قد شاهد رأس خروف جعلته يملك قطيعاً من الغنم ، ومن لم يكن قد رأى رأس ثور ، جعلته يملك قطيعاً من الحيـوانات ويملك فضة وذهباً ، ومن لم يكن قد عاين قميصاً منذ صغره توشح بالحرير في عهدي . . » وفي ختام الكتابة يستـنزل لعنـة الالهة على من يعبث بها من ابنائه الذين سيخلفـونه حيث يقول « اذا اعتلى العرش احد ابنائي وعبث بهذه الكتابة.. ليكسر رأسه بعل ـ صمد وبعل ـ حمان .. وركوب » .

٢ ـ كتابة بنامو : وهي ثلاثـة وعشرون سطـراً

نقشت بالآرامية على تمثال ملكي ويبدو ان كاتبها هو ابن بنامو حيث جاء فيها « ابي بنامو كان معتبراً بين الملوك القديرين » وتتحدث هذه الوثيقة عن فترة ولاية بنامو الثاني الذي تعين ملكاً بامر تغلاثفلاصر ملك آشور في اعقاب قضائه على ثورة عزريو كما مرّ معنا . وهي تشير الى الدمار الذي احدثه عزريو في البلاد وما واكبه من البلايا والنكبات فقد « ملأ السجون وجعل المدن المقفرة اكثر من المأهولة » . الا ان بنامو اطلق سراح جميع المسجونين لدى تسنمه زمام الحكم ، وعمل على تقدم البلاد وازدهارها ، فعم الرخاء وساد السلام وكثرت الغلال وازداد عدد المواشي اكثر من ذي قبل « فكثرت الحنطة والشعير والاغنام والابقار » . وقد استطاع بنامو بسياسته بل بتبعيته للملك آشور ، ان يمتلك ذهباً وفضة وان يضم بعض مدن مملكة كركم الى بلاده . الا ان ذلك كلفه ولا شك الشيء الكثير من المتاعب حتى انه كان « يركض مقتفياً اثر عربة سيده تغلاثفلاصر » خلال عمليات الاخير العسكرية .

٣ ـ كتابة بر ركب : وهي عشرون سطراً ،

نقشها الملك بر ركب الى جانـــب تمثال له بارز . يبدأها بذكر اسمه واعزازه بخضوعه لملك آشور حتى يصف نفسه بانه « خادم تغلاثفلاصر » ، ثم يشير الى اخـلاص مـلوك شمأل للآشوريين اكثر من غيرهم « لقد تعب بيت ابي اكثر من اي بيت آخر » . ثم يتحدث عن اهتمامه بالمملكة منذ تسلمه مقاليد الامور فيها وجعله اياها مزدهرة اكثر من اي عهد مضى ، حتى صار موضع حسد الملوك الآخرين « وقد حسدني اخوتي الملوك على ازدهار بيتي » ومن اجلْ مظاهر هذا الازدهار ، البلاط الجميل الذي شيّده والذي لم يكن له نظير لدى اسلافه كما يقول .

مسلة بر ركوب
ملك شمأل
من القرن ٨ ق.م
عثر عليها في زنجيرلي
قرب انطاكية

مملكة حماه

في أواخر القرن الحادي عشر ق م تمكنت بعض القبائل الآرامية من السيطرة على حماه وتأسيس مملكة آرامية على انقاض الحكم الحثي السائد فيها يومذاك . وسرعان ما ضمّت تحت سيطرتها عدداً لا يُستهان به من المدن المجاورة أهمها أفاميا الواقعة في الجهة الشمالية الغربية منها ، والتي ما زالت اطلالها قائمة حتى يومنا هذا والتي اشتهرت بشارعها الفخم البالغ طوله ١٨٠٠ م وعلى جانبيه تقوم اعمدة فخمة .

وظلت حماه لفترة لا بأس بها محافظة على ازدهارها مالكة لسيادتها ، الى ان تمكن سليمان الملك من إخضاعها وإنشاء مستودعات للخزن فيها (١) مسخراً السكان الاصليين في بنائها . ولكن ما هي إلا فترة حتى اعيدت الى أصحابها

(١) ٢ اخبار ٨ : ٣

الشرعيين . وتميزت حماه بعنفها (١) التي كثيراً ما أدَّت الى صد هجمات الجيش الآشوري والحيلولة دون سيطرته عليها ، ولئن دفعت احياناً الجزية للآشوريين ، إلا انها ظلت مستقلة مدة طويلة حتى أخضعها الملك سرجـــون عام ٧٢٠ ق.م فأصبحت من ثم مستعمرة آشورية . وقـد وصفها عامـوس النبي بالعظمة (٦ : ٣) ، بيد ان هذه العظمة لم تكن لتدوم طويلاً كما يظهر بسبب عجز بعض ملوكها ، وهـذا ما نستدل عليه من المحاولة التي قام بهـا حـدد عزر ملك صوبا ضدها بقصد ضمها الى مملكتـه حيث استغـل ضعف ملكها توعي ، الا انه فشـل في تحقيق هـــذه الغاية ، لاضطراره الى مقاومة الملك داود . وقد تركت نوايا حدد عزر هذه حقداً دفيناً في قلب توعي كشف عنـه عنـدما هزم حدد عزر امام الملك داود ، حيث بادر توعي بتهنئة الملك داود معبراً بذلك عن سروره العظيم بخـذلان حـدد عزر ، فأرسل ابنه يورام محملاً بالهدايا النفيسـة الى الملك داود بمناسبة انتصاره على « العـدو المشترك » بالرغـم من كون حدد عزر آرامياً وداود عبرانياً .

(١) قد يكون مصدر هـذه المنعة هو طبيعة موقع حماه الجغرافي المنيع حتى ان اسمها مستوحى منه . فحماه كلمـة آرامية تعني قلعـــة أو حصن (قاموس الكتاب المقدس) .

الملك زكير ومسلته

يعتبر زكير أشهر من قبضوا على دفـــة الحكم في حماه ، ولئن لم يتسلم الحكم بصورة شرعيـــة . اذ ليس هناك ما يشير الى انه منحدر من العائلة المالكة ، وقـــد يكون قد جاء الى الحـكم على أثر انقلاب عسكري . ومهما يكن من أمر فانه كان رجـل بأس ودهاء ، طموحـــاً مقداماً سعى بكل ما أوتي من قوة وعزم الى توسيع مملكته على حساب الدويلات المتاخمة لها . فقـد سيطـر اولاً على مقاطعة لعش الواقعة ما بـين حماه وحلب واتخـذ عاصمتهـا حدراك (١) عاصمة ثانية له ، وأقام نفسه ملكاً عليها حـتى صار يعرف بملك حماه ولعش . وإذ شعر ملوك الدويلات الآرامية الاخرى بخطر هذا الطموح الجارف على استقلال دويلاتهم ، دعا برحدد بن حزئيل ملك دمشق الى تحالف عسكري ضدّ زكير ، فاستجاب الى هذه الدعوة ستـــة عشر ملكاً ، وزحفوا بجيوشهم نحو حـدراك وحاصروهـا وضيقوا عليها الخناق ، الا انهم لم يفلحوا في فتحها فعادوا ادراجهم مكرهين يجرون ذيول الخيبة ، ولم تعرف الاسباب

---

(١) ورد اسم حدراك في نبوة زكريا ٩ : ١

الحقيقية لهذا المشل الذريع حتى ان الكتابة المنقوشة على النصب التذكاري الذي أقامه زكير بهذه المناسبة هي غفل عن ذلك . بيد ان بعض الباحثين ذهبوا الى ان زكير كان عميلاً للآشوريين فاستنجد بهم ضد التحالف المشار اليه فأنجدوه وأنقذوه . ولكن هل كان الآشوريون فعلاً هم الذين صدّوا المتحالفين ؟ فاذا كان الامر كذلك اذن لذكر ذلك في الوثيقة التي نقشت على النصب المقام احياء لحادثة انهزام الجيوش الحليفة كما فعل ملوك شمأل . واذا قيل انّ الجزء الاكبر من الوثيقة قد تلف وربما تضمن التالف منها اشارة الى هذه النجدة . نقول هذا الظن قد يتلاشى اذا ما علمنا ان زكير يعزو انتصاره الى إلهه شمايين كما جاء صريحاً في هذه الوثيقة حيث قال « قال لي بعل شمايين لا تخف لأني انا الذي أقمتك ملكاً وأنا سأقف معك وأنا سأخلّصك من كل هؤلاء الذين أقاموا الحصار ضدك » .

ولقد أرّخ زكير ، كما أشرنا اعلاه ، حادثة نجاته من الجيوش المتحالفة في كتابة نقشها على مسلة اكتشفت في افيس الواقعة على بعد ٤٠ كم جنوب غربي حلب ، وهي الان موجودة في متحف اللوفر بباريس وقد امّحى الجزء

الاعظم منها ولم يبقَ سوى القسم الاسفل . ومنه يبدو ان زكير اقام هذا النصب (المسلة) اكراماً لالهه الذي وقف معه وملّكه على حدراك وخلّصه من الحلفاء الذين تألبوا عليه تحت زعامة برحدد ملك دمشق والذين حاصروه في حدراك . ثم يثبت قائمة باسماء هؤلاء الملوك المتحالفين وهم ملوك كل من : دمشق ، بيث اغوشي ، قيليقيا ، عمق ، كركم ، شمأل ، ميليد ، وهناك اسمان آخران محذوفان ، واسماء سبعة ملوك آخرين لم تذكر دويلاتهم . وتتحدث الوثيقة عن محاصرتهم لحدراك « وإقامتهم سوراً حولها اقوى من سورها ، وحفرهم خندقاً أعمق من خندقها » ، ثم تذكر كيف ان زكير التجأ الى إلهه شمايين عندما وجد نفسه محاطاً باعدائه ، وكيف ان إلهه قوّى عزيمته ووعده بالنصر . ويختم هذه الوثيقة بالتهديد بمن تسوّل له نفسه فيقدم على محو اسمه منها فيقول « كل من يمحو اسم زكير ملك حماه ولعش من هذا النصب او يخربه من امام ايل ، او يزيله من مكانه او يمدّ يده ضده . فان بعل شمايين وايل وبر وشمش وسهر واله السماء والارض ستهلكه » .

موقعة قرقر ونهاية المملكة

لقد عرفنا ان ملوك حماه كانوا يدفعون الجزية لملوك آشور كلما غزوا مملكتهم فيما يغزون من دويلات المنطقة ، ومعنى هذا انهم كانوا يشترون استقلالهم بالمال . وظل الامر كذلك حتى عهد يوبعدي آخر ملوك حماه الذي أخذ يشعر بثقل الجزية . لذلك كان يتحين الفرص للتخلص منها ، الا انه كان اضعف من ان يعلن عصياناً ضد الآشوريين الذين كانت قواتهم في تلك الفترة بالذات تكتسح دويلات المنطقة الواحدة تلو الاخرى وتخضعها وتجعل منها ولايات آشورية حتى وصلت بفتوحاتها الى فلسطين حيث اخضعت مملكة اسرائيل . وقد أثار تقدم الآشوريين هذا السريع واقترابهم من مصر قلق ملكها فأخذ منه الخوف كل مأخذ ، وفكر في تشكيل جبهة ضدهم من الدويلات الآرامية التي تتوسط بلاده ، وبلاد آشور ورأى ان خير ما يثير اهتمام هذه الدويلات هو موضوع الجزية المفروضة عليهم من قبل الآشوريين ، وان إقامة جبهة ضدهم هي أفضل وسيلة للتخلص من تلك الجزية . ولما عرض فكرته هذه على يوبعدي نالت عنده استحساناً بالغاً وقام هو بدوره

باقناع ملكي بيث اغوشي والسامرة بالانضام الى هذه الجبهة إذ كانا هما الآخران يؤديان الجزية لآشور . وما كاد يتمّ إعداد جيش منظم حتى أعلنوا العصيان عام ٧٢٠ ق.م.

وازاء هذا الموقف المصري الآرامي السامري الموحد ، لم يكن بدٌّ امام سرجون الا العمل بكل ضراوة على قمع الحركة مهما غلا الثمن . فقاد جيشاً جراراً كبير العدة والعدد وسار نحو حماه ، فالتقى الجيشان الآشوري والمتحالف الذي قاده سبعو رئيس قواد ملك مصر ، في موقع قرقر على نهر العاصي . وهذه هي المرة الثانية التي يلتقي فيها الجيش الآشوري بالجيش الآرامي في هذا الموقع . فدارت بينهما معركة حامية حاسمة انتهت لصالح سرجون ، فتمكن سبعو من الهرب ، اما ملك حماه فقد القي القبض عليه وقتل وسلخ جلده كما جاء في الكتابة التي تركها سرجون إحياء لذكرى انتصاره هذا العظيم ، قال فيها « اني حاصرته (ملك حماه) في قرقر خيرة مدنه مع جنوده ، ثم استوليت عليها فأحرقت قرقر ، اما هو فسلخته ، وفي هذه المدن قتلت العصاة وفرضت السلام على الجميع واخذت

٢٠٠٠ مركبة و ٦٠٠ حصان من سكان بلاد حماه (١) .

ولما استتب الامر لسرجون فكر في وضع حد لمثل هذه الانتفاضات ، فنقل عدداً غفيراً من ابناء حماه الى السامرة ووطن فيها نحو ٦٣٠٠ آشوري وأقام عليها حاكماً آشورياً ، وجلا قسماً كبيراً من ابنائها يقدّر بنحو سبعة وعشرين الف نسمة ، الى منطقة حران على ضفاف الخابور . وعلى هذه الصورة انتهى حكم الآراميين في حماه ، فطويت صفحتها الآرامية ، وقد تكون آخر صفحة تُطوى في تاريخ الممالك الآرامية في سورية واعالي ما بين النهرين .

---

(١) تاريخ سورية ولبنان لفيليب حتي ص ١٨٩

مملكة بيث عديني

قامت مملكة بيث عديني في منطقة حوض الفرات ، في الرقعة الممتدة من مصب نهر البليخ جنوباً حتى سروج وعنتاب شمالاً ، وشملت كذلك جزءاً كبيراً من منبج والرقة ومنطقة دير الزور (١) ، عاصمتها تل برسيب وتعرف اليوم بـ « تل الاحمر » . وقد عرفت بيث عديني في العهد القديم بـ « عدن » أو بيت عدن ، ووردت هذه التسمية في سياق نبوءة عاموس حول دمار بعض الممالك الآرامية ومن ضمنها بيث عديني حيث قال : « هكذا قال الرب . . واكسر مزلاج دمشق واستأصل الساكن من بقعة آون (بعلبك) والقابض على الصولجان من بيت عدن ، ويذهب شعب آرام الى الجلاء الى قير قال الرب » (١ : ٥) . وفي المدونات الآشورية وردت بيت عدني . وتعتبر بيت عديني من الممالك الآرامية القوية بل اقوى مملكة في مجموعة الممالك الآرامية المنتشرة في الجزيرة الفربية .

---

(١) الآراميون .

ليس هناك ما يشير الى زمان تأسيسها بالضبط ، الا انها كانت موجودة ولا شك في الربع الاول من القرن الحادي عشر ق.م بدليل ان بلكال الاول ملك آشور (١٠٨٧ - ١٠٧٠ ق.م) شن عليها عدة هجمات متتالية عنيفة .

موقف بيت عديني من الآشوريين

لقد اصطدمت طموحات الآشوريين بإباء ملوك بيت عديني الذين رفضوا الخضوع للنفوذ الاجنبي ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وحاولوا بشتى السبل ليكونوا في منجاة من كابوس الآشوريين محافظين على استقلالهم وسيادتهم . فلم يتأخروا عن اضرام نار الثورة ضدهم كلما لاءمتهم الظروف . وقد خدمتهم سياسة الآشوريين القائمة بالاكتفاء بفرض الجزية على البلدان التي يغزونها ، دون ان يظلوا فيها او يقيموا حكاماً عليها من قبلهم ، وقد استمرت السياسة الآشورية على هذا النمط حتى جاء تفلاثفلاصر الثالث الذي انتهج سياسة اخرى تقوم على ضم الممالك المفتوحة الى بلاده وجعلها ولايات فيها يتولاها حكام آشوريون .

وزيادة في تعزيز كيانهم والحفاظ على استقلالهـم ، أقام ملوك بيت عديـني حراساً لحـــدودهم ، وبذلك حالوا احياناً كثيرة دون تغلغل الآشوريين في سورية الشماليـة ، الامر الذي اثار حفيظـة الملك ناصربال الثاني (٨٨٤ - ٨٥٩ ق م) فصمّم على القضاء على مملكتهم ، فقاد ضدها حملة عنيفة ، فلم يكن بدّ لملك بيت عديني ، ازاء هـذا هذا الموقف الخطير ، الا اللجوء الى الدويـلات الآراميـة المجاورة ، وقد افلـح في إقامة حلف مع كل من شمأل ، كركم ، كركميش ، بيت اغوشي وغيرها ، الا ان هذا الحلف كان اضعف من ان يقاوم الجيش الآشوري اللجب ، فهزم المتحالفون وألزموا بدفع الجزية الملك الآشوري .

انقراض بيت عديني

لقد عرفنا في ما سبـق ان شلمناصر الثـالث ملك آشور ، أنجد عميله كيلامو ملك شمأل ، لمقاومة الدويلات المجاورة الطامعة في خيرات بلاده ، فهزم جيوشهـــا شر هزيمة . وفي هـــذا الوقت بالذات كان آحوني ملك بيت

عديني يخطط لاعلان العصيان ضد شلمناصر المذكـــور ، فتحالف مع بعض الدويلات الآرامية منتهزاً فرصة انشغال الاخير في القتال ، ظناً منه ان الجيش الآشوري سـوف يعود منهوك القوى ولن يكون بمقدوره مقاتلتـه . ولكن سرعان ما خاب ظنه . ذلك بان شلمناصر بعد طرده جيوش الدويلات المتحالفة ضد شمأل ، ووقوفه على اخبار التحالف الآرامي بزعامة آحوني ، تقدم نحو بيث عديني وفي قرارة نفسه القضاء على آحـوني بالذات . واذ عـلم آحوني بان الجيش الآشوري ما زال يتمتع بمعنويات قوية ، دبّ الذعر في نفسه فهرب وعبر الفرات والتجأ الى ملك اراراطـــو (ارمينيا) ، وبعد ان اخـــذ منه وعـداً بنجدته عند الحاجة ، قفل راجعاً الى بلاده .

وما ان تلقى شلمناصر انباء عودة آحوني ، حـتى تهيأ لغزوة ثانية على بيث عديني ، فتحرك نحوها على رأس جيش جرار عام ٨٥٧ ق.م . اما آحوني فقد حصن مدنه بأسوار منيعة ، الا انها لم تقو على الاستمرار في المقاومة

فقد حاصر شلمناصر أولاً مدينة قيرابي احدى اكبر مدن المملكة واكثرها منعة . وما هي الا فترة قصيرة حتى تمكن من دك" اسوارها فدخلها وأعمل السيف في رقاب أهلها ، فقتل ٨٠٠ رجل ونفى ٢٤٠٠ من السكان الى آشور واسكنهم مدينة كالح (نمرود)(١) . ثم تقدمت جيوشه نحو العاصمة تل برسيب التي صمدت ببطولة نادرة امام قواته سنة كاملة ، الا انها استسلمت اخيراً ، فطلب آحوني الامان ، فقبض عليه شلمناصر وساقه الى نينوى مع جيشه ، وانتقم من اهل العاصمة انتقاماً مريراً ، وجلا عدداً غفيراً من ابنائها الى بلاده وجعل من المملكة مقاطعة آشورية وابتنى له فيها بلاطاً ملكياً . وهكذا وضعت هذه الحادثة خاتمة لحياة بيث عديني السياسية .

وفي سفر الملوك الرابع من العهد القديم (١٩ : ١٢) نجد إشارة الى نهاية بيث عديني ، وذلك في معرض حديث

---

(١) كلدو وآثور مج ١ ص ٦٤

شلمناصر الرابع وهو يهدّد حزقيا ملك يهوذا ويذكره بما فعل أسلافه ببعض ممالك آرام ، حيث قال « ألعلّ الامم التي اهلكها آبائي انقذتها آلهتها كجوزان وحاران وراصف وبني عدن الذين في تلاسار » . وتلأسار هي احدى مدن بيث عديني (١) ونرجح ان تكون تل برسيب العاصمة نفسها ، وقد اطلق عليها الآشوريون بعد فتحها هذا الاسم الجديد الذي يعني بالآشورية « تل آشور » .

(١) قاموس الكتاب المقدس .

مملكة بيت باخياني

في تضاعيف المئة الرابعة عشرة ق.م ، نشأت دويلة في الجزيرة السورية تدعى « ميتاني » ، أسسها الميتانيون . وقد ورث هؤلاء حضارة السوبارتيين الذين تميزوا بالنشاط والعمل الدؤوب ، فتوفرت عندهم أسباب الرخاء ، ثم انتقلت ثرواتهم الوفيرة وحضارتهم الى خلفائهم الميتانيين . وبسبب هذه الثروات ، اصبحت بلادهم مطمح انظار الشعوب المجاورة وبخاصة عندما أخذت بوادر الانحطاط تبدو في سماء البلاد في أواخر القرن الثالث عشر ق.م ، فحدث تطاحن عنيف بسببها بين الآشوريين والحثيين ، انتهى لصالح الآشوريين فغدوا أسياد المنطقة . الا انهم لم يستطيعوا ان يرسخوا أقدامهم فيها نظراً الى الحروب المستمرة بينهم وبين الحثيين في النصف الاخير من القرن الثالث عشر ق.م فاضطروا الى سحب قواتهم من ميتاني لتعزيز قواتهم على الجبهة الشمالية اعتقاداً منهم بعدم وجود من يزاحمهم في الداخل ، وانها (ميتاني) ستكون في

متناول يدهم في اي وقت شاءوا . لأن شعبها أصبح من العجز بمكان بحيث لم يعدْ بامكانه القيام بأية انتفاضة او ثورة .



من النقوش التي عثر عليها على جدران قصر الملك
الآرامي كبارا في غوزان (تل حلف)
القرن التاسع قبل الميلاد

الا ان الآشوريين فاتهم ان قبائل الاحلامو الآرامية الضاربة في المنطقة القريبة من الفرات تتربص لهذه الفريسة الدسمة وتتحين الفرصة للانقضاض عليها ، وقد حدث فعلاً ما لم يدخل في حسابات الآشوريين . فان الآراميين ما ان شعروا بانحسار القوات الآشورية من هذه المنطقة حتى هاجموها وسيطروا عليها وأسسوا دويلة لهم على انقاض الدولة الميتانية ، وذلك في أوائل القرن الثاني عشر ق.م .

اتخذ الآراميون مدينة « غوزانا » عاصمة لهم وهي تل حلف الواقعة الى مقربة من مدينة رأس العين الحالية ، وكانت قبلاً عاصمة للسوبارتيين ، وقد دمرت في عهد الميتانيين الذين اقاموا لهم عاصمة غيرها ، بيد ان الآراميين أعادوا اليها مجدها الغابر (١) فاقاموا فيها قصوراً شاهقة زينت بنقوش بارزة بديعة وتماثيل ولوحات جميلة وأحاطوها بأسوار منيعة .

واشتهر من ملوكها كبارا بن قاديانو وهو زعيم احدى القبائل الآرامية واليه يعزى تأسيس المملكة وبناء

---

(١) الجزيرة السورية ص ١٣١

هيكل تل حلف ، الا ان هـذا ليس مؤكـــداً بالوثائق التاريخية إنما هو مجرد اجتهاد استناداً الى ورود اسمه بكثرة في آثار تل حلف .

وقد لعب هذا الرجل دوراً بارزاً في حياة مملـكة باخياني ولا سيما من الناحيـة الحضارية . فقد أسفـــرت التنقيبات الاثرية التي اجريت في تل حلف عن اكتشـاف قصر فخم لكبارا . بيد ان ذوي الاختصاص يؤكدون ان الحجارة المنقوشة التي شيد بها القصر ليست من ابداع فنانين وصناع آراميين او حتى ميتانيين ، بل انهـا تعود الى قصر ملك السوبارتيـــين ، وان الآراميين اكتشفوها واستخدموها في بناء قصر كبارا المشـار اليه (١) . ذلك بان الآراميين لم تكن لهم مثل هذه الحضارة آنذاك ، اذ لم تكن قد مضت مدة طويلة على انتقالهم من البداوة الى الحضارة . ولهذا فان معظم المعالم الحضـارية التي اكتشفت في تل حلف ، حـــتى التي تعـود الى العصر الآرامي ، ليست آرامية بحتة انما هي مقتبسة من الشعوب التي سبقتهم والمتقدمة حضارياً .

---

(١) فيه ص ١٤٨

ومن الآثار المكتشفة في تل حلف ايضاً ، اختـام من الفخار عليها كتابات باللغـة الآراميـة ، ومنحـوتات واقراط ذهبية تعود الى عهد كبارا . وقد عثر في أحـد مدافن الآراميين على صفيحة ذهبية رقيقة كانت توضع على فم الميت لتمنع دخول الارواح الشريرة الى جسـده ، كما وجد في المدفن الملكي الآرامي علبة من العاج في احـدى زواياها طلاء احمر والى جانبها وجدت آلة فضية لمدّ الطلاء وقد استنتج الباحثون من هذا ، ان ملوك باخيـاني كانوا يطلون شفاههم بالحمرة (١)

انقراض المملكة

لم يكتب لمملكة باخياني الاستمرار طـويلاً متمتعـة بالاستقلال والسيادة ، لأنهـا نشأت في فـترة كان فيها الآشوريون في أوج عزهم ونشاطهم . ولا نعلم بالضبط متى انتهت كمملكة مستقلة ، إلا انّ ما نعرفه هو انتغلاثفلاصر الاول (١١١٦ - ١٠٩٠ ق.م) الذي كان يطمـع

(١) فيه ص ١٥٥

بامبراطورية عظيمة مترامية الاطراف ، اقتحم هذه الدويلة في ما اقتحم من دويلات ودمر عاصمتها وما حوت من قصور وهياكل . وفي هذا الصدد يقول تغلاثفلاصر في مذكراته : « اني دمرت في يوم واحد من بلاد سوحي الى مدينة كركميش فقتلتهم وأخذت غنائمهم وأموالهم وخيراتهم الطائلة » (١) ومنذ ذلك الحين أخذت مملكة باخياني بالانحطاط ، وربما ظلّت محافظة على استقلال شكلي وتدفع الجزية لملك آشور فترة من الزمن ، شأنها في ذلك شأن معظم دويلات المنطقة . اما زوالها بشكل نهائي فمن المرجح ان يكون قد تمّ على يد الملك اداد نيراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٢) ق.م) الذي أغار على ممالك بلاد الخابور (جوزان) وأخضعها وضمها الى بلاده ، اذ لم نعد نسمع شيئاً عنها بعد هذه الفترة .

---

(١) الآراميون

مملكة بيث زماني

في أوائل القرن الحادي عشر ق.م ، وفي أعقاب وفاة تغلاثفلاصر الاول ، اخذت دولة آشور بالتضعضع والانحطاط شيئاً فشيئاً ، نظراً الى عجز خلفائه عن القيام بمهام الدولة على ما يرام والحفاظ على الامبراطورية التي اتسعت كثيراً . الأمر الذي شجّع العديد من الدويلات على التمرّد وإعلان الاستقلال بعد ان كانت تُدار من قبل الآشوريين او تؤدي لهم الجزية صاغرة . وفي الوقت نفسه افسح المجال امام بعض القبائل الآرامية لتؤسس دويلات مستقلة هنا وهناك .

وبيث زماني هي احدى تلك الدويلات التي قامت في فترة انحطاط الدولة الآشورية في المنطقة الكائنة بين الفرات وينابيع نهر بليخ ، في القسم الاعلى من دجلة ، واتخذت آمد (ديار بكر) قاعدة لها .

ان قيام هذه الدويلة مؤشر كبير على ما وصلت اليه مملكة آشور من التقهقر ، لأن قبيلة بيث زماني لم تكن

ذات شأن ، ويكاد تاريخها يكون مجهولاً لولا ما ورد عنها في المدونات التي تركها ملوك آشور الذين اعادوا فيما بعد مجد بلادهم ، وأبرزهم اشوردان الثاني (٩٣٢ - ٩١٢ ق.م) الذي افتتح عهداً جديداً في تاريخ آشور ، باعادته الكرامة الى بلاده ، وقد نسج على منواله ابنه ادادنيراري الثاني وكذلك فعل حفيده توكولتي الذي خلفه على العرش آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) . وكان آشوردان من العنف بمكان ، حيث عامل بالقسوة الدويلات التي أعاد فتحها . فانه ما كاد يتسلم مقاليد الامور حتى قاد حملات عنيفة متتالية ضد تلك الدويلات وألحق بها الويلات .

ولم تكن مملكة بيت زماني بأوفر حظاً من رصيفاتها ، ذلك بان آشور ناصربال حمل عليها عام ٨٨٢ ق.م ففتك ودمر وقتل وسبى العديد من ابنائها كما يلاحظ في إحدى كتاباته التي قال فيها انه سبى ١٥٠٠ احلامو - الآراميين من بيت زماني وأتى بهم الى بلاد آشور (١) . ففتح أولاً مدينة تلا بالرغم من منعتها ونكل بأهلها افظع تنكيل مستخدماً أبشع الأساليب من حرق أجساد وقطع آذان

---

(١) المصدر نفسه .

وبتر أطراف وقلع عيون وما الى ذلك . بعد ذلك وجّه انظاره الى عاصمة المملكة فدبّ الذعر في نفس ملكها فاستسلم دون اية مقاومة وعرض دفع جزية باهظة لقاء الحفاظ على حياته ، فاكتفى آشور ناصربال بعزله وإقامة ملك آخر بدلاً منه يدعى امنيبعل ، وغادرها الى منطقة نيري الواقعة شمال شرقي بيث زماني . وما هي الا فترة وجيزة حتى اعلن ابناء بيث زماني العصيان وقضوا على امنيبعل وأقاموا عوضاً عنه شخصاً يدعى بورمان .

واذ بلغت هذه الانباء آشور ناصربال انكفأ عائداً الى بيث زماني عام ٨٨٠ ق.م وحاصر عاصمتها ثم دخلها وقتل بورمان وأقام أخاه ارتيانا بدلاً منه ، وغنم عربات جميلة و ٦٠٠ حصان و ٢٠٠٠ ثور و ٥٠٠ رأس غنم و ١٢٠ كيلو ذهباً وفضة و ٦٠٠٠ كيلو نحاساً و ٩٠٠٠ كيلو حديد ، والشيء الكثير من الاقمشة والاواني المصنوعة من ذهب وعاج (١) . وهكذا انقرضت هذه الدويلة .

---

(١) كلدو وآثور مج ١ ص ٦٣

مملكة بيث أغوشي

ليس هنالك مكتشفات أثرية أو مدوّنات تاريخية كافية ، لمعرفة كيفية تأسيس هذه المملكة وزمانها بشكل دقيق ، كما ان اخبار الصدامات بين الآراميين والحثيين في فترة التأسيس هي الاخرى شحيحة ومهما يكن من أمر ، فان سقوط المنطقة بيد الآراميين لم يكن هيناً ، فقد لاقى الآراميون مقاومة عنيفة اثناء زحفهم من قبل الحثيين الذين كانوا يسيطرون على القسم الشمالي من سورية ، ولا سيما منطقتي كركميش وحلب . بيد انه من المؤكد ان بيث آغوشي تأسست خلال الزحف الآرامي في شمال سورية ، شأن العديد من شقيقاتها الاخرى . ذلك بان الآراميين كانوا يزحفون في مجاميع كبيرة تؤهلهم السيطرة على بعض المناطق . وعندما كانوا يحققون انتصاراً ويحتلون منطقة ما ، تسيطر عليها إحدى قبائلهم المتنفذة ، ومن ثم تستأنف المجاميع الباقية زحفها حتى يتسنى لها تأسيس مملكة جديدة

وهكذا دواليك .

فتكون هذه المملكة والحالة هذه ، قد تأسست في غضون منتصف القرن الحادي عشر ق.م او أواخره . على أبعد حدّ ، وهي فترة نهوض القبائل الآرامية . وقد جاء في المدوّنات الآشورية ان شلمناصر الثالث أغار عليها عام ٨٥٠ ق م وكانت آنذاك قد بسطت نفوذها على الرقعة الممتدة ما بين الفرات وجبل حمانا ، وفتح مئة من قراها وفرض عليها الجزية . وفي السنة التالية امتنعت عن تأدية الجزية فأغار عليها ونهب وسلب كل ما استطاع اليه سبيلاً . وقد جاء في مذكراته قوله : « في السنة الحادية عشرة من ملكي خرجت من نينوى وعبرت الفرات لتاسع مرة وفتحت سبعاً وتسعين مدينة من مدن سنجار ، وفتحت ايضاً مئة مدينة من مدن آرام فخربتها وأحرقتها بالنار » (١) .

دخلت أغوشي في تحالفات آرامية متعددة حفاظاً على كيانها . فقد كان ملكها ضمن الملوك الذين تحالفوا وتآمروا

(١) فيه ص ٧٠ و ٧١

على مملكة شمأل لموالاتها للآشوريين (١) وذلك في منتصف القرن التاسع ق.م . وفي نهاية القرن التاسع ق.م دخل ملكها حلف الممالك الآرامية بزعامة برحدد ملك دمشق ، ضد زكير ملك حماه .

احتلت مملكة بيت أغوشي المنطقة الممتدة شمال غربي حلب ، وكانت متاخمة لمملكة بيت عديني من الجهة الشرقية ، واتخذت مدينة ارباد عاصمة لها وهي المعروفة اليوم بـ « تل رفعت » ، وقد اجـــريت فيها تنقيبات أثرية الا أنهـا لم تسفر لحدّ الان عن اكتشافات ذات أهمية وقيمة تاريخية .

اغوشي وملوك آشور

لقد عانت أغوشي كغيرها من الدويلات الآرامية ، الشيء الكثير من تعسف ملوك آشور الذين اثقلوا كاهلها بالضرائب الباهظة ، لكنها لم تتقاعس عن الامتناع عن ادائها كلما ساعدتها الظروف . فقد امتنعت عن دفعها مثلاً في عهـد آشـوردان الثالث (٧٧٢ - ٧٥٤ ق.م) الملك الغبي الخامل الذي انهمك بالملذات مهمـلاً شؤون البـــلاد

(١) الآراميون

والمستعمرات . غير ان ابنه آشور نيراري الخامس (٧٥٤ - ٧٤٥ ق.م) اغار عليها بالرغم من الوهن الذي كان قد دبّ في بلاده ولم يواجه أية مقاومة . فقد استسلم له ملكها متى - ايل وقبل بالمعاهدة التي فرضها عليه وقد تضمنت شروطاً قاسية كأن يؤازر متى - ايل الجيش الآشوري في جميع غزواته ، وختمت المعاهدة بانزال لعنات الاله « سين » على متى - ايل إن هو نقض أحد بنود هذه المعاهدة او نكل بملك آشور .

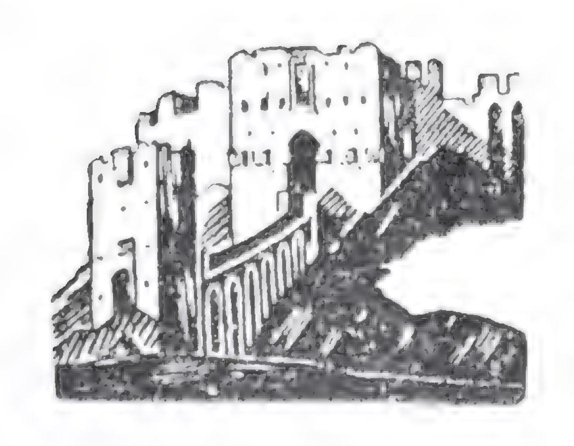
وإذ كانت هذه المعاهدة قسرية ومن جانب واحد ، بات متى - ايل يتحين فرصة للتنصل منها ، وقد كان له ما أراد حين تحرك ملك اراراطو شاردور واقتحم المستعمرات الآشورية فأخضع بعضاً منها تحت سيطرته وأثار البعض الآخر ضد آشور متعهداً بحمايتها ومساندتها ، وبذلك تحررت عدة دويلات آرامية ومن ضمنها أغوشي . فنقض متى - ايل للحال المعاهدة الآنفة الذكر ، واستبدلها بمعاهدة جديدة عقدها مع بر كعيا ملك كتكا ، وقد اكتشفت في موقع سفيرة القريبة من حلب منقوشة على

قطعة حجر هي جزء من نصب تذكاري ، وهذا مطلعها : « معاهدات بركعيا ملك كتكا مع متى - ايل بن عطار . ومعاهدات احفاد بركعيا مع بني متى - ايل ، ومعاهدات احفاد بركعيا مع نسل متى - ايل ومعاهدات كتـــكا مع ارباد ومع حلفائها ومع آرام كله ومع مصري ومع أولاده الذين يقومون من بعده ومع كل آرام الاعلى والاسفل ومع كل الذين يدخلون البلاط الملكي » (١) وقد نصت المعاهدة على تهديدات ولعنات تنزلها الالهـة بمتى - ايل ان هـــو نكث بهذه المعاهدة . ومنها : « اذا خان متى ايـل عهوده وقسمه لتصبـح مملكته مملكة رمل . . ومثلما يحترق هـذا الشمع بالنار كذلك لتحترق ارباد » .

ظلت أغوشي بعيدة عن نفوذ الآشوريين نحو اثنتي عشرة سنة حتى تسلم تغلاثفلاصر الثالث مقاليد السلطة في آشور ، والذي عزم على استعادة ما خسرته بـــلاده من سيطرة ونفوذ . فقرر الانتقام من متى - ايل الذي نكث العهد فحمل على عاصمته ارباد حيث كان ملكها قـد تحصن

(١) المصدر نفسه

فيها وحاصرها ، لكنه اضطر الى فك الحصار عنها والاتجاه نحو الشمال لصد ملك اراراطو الذي كان قادماً لنجـــدة الآراميين ، فدحره في منطقة كموجـين وانكفأ عائداً الى ارباد فأمضى ثلاث سنوات مقيماً تحت اسوارها ، نظراً الى منعتها ، الا انه تمكن اخيراً من اقتحامهـــا وكان ذلك نحو سنة ٧٤٠ ق.م فهابه حينذاك جميع مـلوك الدويلات المجاورة ، فأتوا الى ارباد وقدموا له الولاء مع هدايا ثمينة . ثم غادر تغلاثفلاصر ارباد بعـد ان ضمها الى بـلاده وولّى عليها نفراً من رجاله .



مملكة كركم

نشأت هذه الدويلة في ما نشأ من دويلات إبان وثبة القبائل الآرامية ، التي وصل غزوها لأعالي ما بين النهرين ذروته في أواخر القرن الحادي عشر ق.م حيث احتلت تلك المنطقة واستقرت فيها مؤسسة دويلاتها ومنها كركم . وكانت امارة صغيرة اتخذت مركاسي (مرعش) عاصمة لها واحتلت المنطقة التي تتوسط شمأل من الشمال وبيت عديني من الجنوب .

لم يدم استقلالها طويلاً إذ لم تكن بقادرة على أن تبقى في مأمن من مطامع الآشوريين ، فقد كانت عرضة لغزواتهم العنيفة ، ولا سيما في عهد شلمناصر الثالث الذي آلى على نفسه الا ان يوسع بلاده . ووصولاً الى هذه الغاية كان عليه ان يحارب في جهات ثلاث : بابل في الجنوب ، ودمشق في الغرب ، واراراطو في الشمال . ولكي يصل الى اراراطو كان عليه ان يكتسح أولاً الدويلات الصغيرة التي تعترض طريقه اليها . وكانت كركم

إحدى تلك الدويلات فاكتسحها في السنة الاولى لملكه ونكل بأهلها تنكيلاً بشماً وارغمها على دفـــع الجـزية ، لكنـه انسحب منهـا فيما بعـد فخلعت طاعتـــه وامتنعت عن دفع الجزية .

كركم والاحلاف

كانت كركم دويلة غير ذات شأن ، تهددها الاخطار من الخارج في كثير من الاحيان . ومن اجـل درء تلك الاخطار والحفاظ على كيانها ، انتهج ملوكها سياسة دخول الاحلاف . فقد انضمّ أحد ملوكها الى التحـالف الآرامي الذي دعا اليه برحدد ملك دمشق ضد زكير ملك حمـاه . وفي عام ٨٥٨ ق م أنضمّ ملكها الى تحالف آخـر بقيادة مملكة بيث عديني ضم الدويلات الآرامية في منطقة بـــين النهرين الوسطى ضد شلمناصر ملك آشور ، الا انها فشلت امام قوة الآشوريين الضاربة ، وتمخض هـذا الفشل عن موجة من الاضطرابات سادت الممالك الآرامية . وفي عام ٨٥٣ ق.م شن شلمناصر حملة اخرى على المنطقة فأخضعها تحت سيطرته وفرض الجزية على ملوكها . وقـــد جاء في

مذكراته قوله : اني استلمت جـــزية من مـلوك ما وراء الفرات وهم سنجرا ملك كركميش وكونداشي ملك كمـوج وآرامي ملك بيث أغوشي ولالي ملك ميليـد وحياني ملك بيث كباري وكافارودادوا ملك حطـــين وكافارودا ملك كركم . . . (١)

وفي اوائل عهد تغلاثفلاصر الثالث نرى ترحـولارا ملك كركم يدخل في حلف آخر ضمّ بعض ممالك المنطقة الآرامية وغير الآرامية مع ملك أراراطو ، وكان القصـد منه الوقوف ضد التوسع الآشوري الجديد من جهة وتغلغل نفوذه في سورية من جهة ثانية . بيد ان تغلاثفلاصر هزمهم فانفرط عقدهم ، وهكـذا فشل ملك اراراطو في ايجـاد نفوذ له في المنطقة الآرامية . ولم تمضِ مدة طويلة على هذا الاندحار ، حتى نرى ترحولارا في جملة الملوك الآراميـين الذين حملوا هدايا نفيسة من ذهب وفضة وعاج وارجوان ، الى تغلاثفلاصر حين كان في ارباد على أثر إخضاعـه مملكة بيث أغوشي .

---

(١) المصدر نفسه

ويذكر ان تغلاثفلاصر اقتطع جزءاً من مملكة كركم وضمها الى مملكة شمأل كمكافأة لملكها بنامو الثاني نظراً الى ولائه الشديد لآشور . اما ترحولارا فقد استمرّ في الحكم حتى اغتاله ابنه ترحونازي وسيطر على المملكة ورفـــض دفع الجزية لآشور ، فقرّر الملك سرجون تأديبه ، فأغار على بلاده وأسره وجميع افراد عائلته ، وسبى ٥٠٠٠ نفس من رعاياه الى آشور ، وجعل كركم ولاية آشورية وولّى عليها حكاماً آشوريين (١) وبذلك يكون الحكم الآرامـي قد انتهى فيها .

---

(١) كلدو وآثور مج ١ ص ٩٥

مملكة سُوحي

لقد ذكرنا ان الآراميين سلكوا اتجاهين في بدء انطلاقهم من وطنهم الأم ، الاول نحو الشمال حيث استقروا في مناطق دمشق وحماه وحدود فلسطين ، والثاني نحو الشمال الشرقي ، وقد عرف الذين سلكوا هذا الاتجاه بـ « الاحلامو » ، فعبروا الفرات واستقرّ بعضهم على ضفاف الخابور والبليخ ، فيما استمرّ زحف القسم الآخر حتى وصلوا الى أعالي بين النهرين . الا ان بعض قبائلهم استقرّت على ضفاف الفرات وأسّست مملكة في المنطقة الممتدة بين الخابور ومصبّ نهر البليخ عرفت بـ « سوحي » نسبة ، على ما نعتقد ، الى إحدى أشهر تلك القبائل وأقواها ، وتليها بالشهرة قبيلة لاقي (١) . وقد شيدت فيها بعض المدن المهمة مثل عانه وخاريدي وشورا .

لقد قامت هذه المملكة في أواخر القرن الثاني

(١) توجد اليوم قرية باسم لاقي في نفس المنطقة التي سكنتها قبيلة لاقي الآرامية .

عشر ق.م على أقل تقدير ، ذلك بأنها ذكرت في جملة الممالك التي شن عليها تغلاثفلاصر الاول عام ١١١٢ ق م حملة موفقة كانت موضع اعتزازه حيث قال فيها « دمرت في يوم واحد من بلاد سوحي الى مدينة كركميش الواقعة في بلاد الحثيين » .

علاقة سوحي بالآشوريين

كانت منطقة سوحي تحت نفوذ ملوك بابل ثم انتزعها منهم الآشوريون في عهد ملكهم ادادنيراري الاول (١٣٢٠ - ١٢٩٠ ق م) (١) ، الا انهم تحملوا متاعب كثيرة بسبب الاضطرابات التي كان يثيرها ابناء سوحي بين حين وآخر . حتى ان تغلاثفلاصر اضطرّ الى ان يجتاز الفرات متعقباً اياهم وغيرهم من الآراميين ثمانية وعشرين مرة كما صرّح هو نفسه فقال « اني اجتزت الفرات ثمانية وعشرين مرة في اثر احلامو ، اي مرتين في كل سنة ، ومن مدينة تدمر الواقعة في بلاد امورو ومن مدينة عانه في بلاد سوحي الى مدينة ربيقو الواقعة في بلاد كردونياش (٢)

(١) كلدو وآثوز مج ١ ص ٤٧

(٢) الآراميون

وكان ملوكها يتوددون الى ملوك آشور ويدفعون لهم الجزية ، فقد قصد حاباني الملك نينوى حاملاً هدايا نفيسة من ذهب وفضة للملك آشور ناصربال الثاني ، وأمضى فيها مدة ثم عاد الى بلاده . الا انه أعلن العصيان فيما بعد متكاتفاً مع القبائل الآرامية المجاورة ، ومتحالفاً مع نبوبلدان ملك بابل الذي انجده بفرقة من الجيش يقودها اخوه زبدان . الا ان قوة الآشوريين كانت مضاعفة ، لذلك استطاعوا ان يخذلوا الجيش المتحالف في معركة قرب مدينة شورا ، وعلى أثر هذه الهزيمة التجأ حاباني الى بلاد العرب وسقط زبدان اسيراً بيد القوات الآشورية ، فاستاقه آشور ناصربال الى كالح . وبعد ان أوقع الدمار في البلاد عاد الى آشور . وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى عاودت سوحي عصيانها ، فحمل عليها مرة ثانية ودكّ مدنها دكاً وبنى قلعتين على الفرات وضع فيهما حاميتين آشوريتين ، الواحدة على الضفة اليمنى ودعاها نيبارت آشور ، والاخرى على الضفة اليسرى باسم كرخ آشور ناصربال (١) وكان ذلك سنة ٨٧٩ و ٨٧٨ ق.م . وبعد هذه الاحداث لا نعود نسمع شيئاً عن هذه المملكة .

---

(١) كلدو وآثور مج ١ ص ٦٤

مملكة آرام النهرين

قامت هذه المملكة في المنطقة الممتدة ما بين الفرات والخابور ، ويسمّيها العهد القديم « فدان آرام » (١) . كانت عاصمتها حرّان الواقعة على نهر البليخ والتي اشتهرت كمركز تجاري استراتيجي ، لوقوعها على أحد الطرق التجارية الرئيسية ، بين بابل والبحر المتوسط ، بالاضافة الى كونها مباءة للعلم والمعرفة . وقد استمرّت كذلك حتى القرن الثامن الميلادي ، وامتازت مدرستها الشهيرة بالفلك والرياضيات والفلسفة والطب . وقد نبغ فيها رجال علم وفلسفة يُشار اليهم بالبنان مثل الفيلسوف مارا بن سرابيون ، والرياضي والمترجم ثابت بن قره وابنه سنان الذي برز في الطب والفلك . حتى ان الثقافة العربية تأثرت بالرياضيين والفلكيين الحرّانيين الذين نقلوا الى العربية كثيراً من مؤلفات اليونان (٢) .

---

(١) تكوين ٢٥ : ٢٠

(٢) الجزيرة السورية ص ٧٩

في هـذه المملكة وفي حرّان بالذات تـغرّب تارح أبو ابراهيم الخليل فترة من الزمن وفيهـا توفي . وإليها أرسل ابراهيم وفداً ليخطب رفقة ابنة فنوئيل الآرامي لابنه اسحق . كما ان بلعام بن بعور الذي استأجره بنو عمون ليلعن بـني اسرائيل كان من فتور إحـدى مدن آرام النهرين (١) .

وقد وصف ياقوت الحموي عاصمة آرام النهرين بأنهـا كانت مدينة عظيمة وشهيرة .. وقيل انها سمّيت « هاران » باسم اخي ابراهيم الذي بناها (٢) . وذكر قوم انهـا أول مدينة بُنيت على الارض بعد الطوفان (٣) وقـــد ظلّ أهلها الوثنيون يباشرون الذبائح البشرية حـتى القرن الثامن الميلادي (٤) . ويذهب كثير من المؤرخين الى أنّ الصابئة هم أحفاد الحرّانيـين القدامى ، وهم لا يزالون يمارسون طقوسهم الدينية باللغة الآرامية . هذا ولا تزال هناك قرية

---

(١) تثنية ٧ : ٤
(٢) الجزيرة السورية ص ٧٦
(٣) معجم البلدان مج ٢ ص ٢٣٠
(٤) اللغات الآرامية وآدابها للأب شابو .

صغيرة في نفس موقع حرّان تحمل اسم « حرّان »(١) .

نموذج من الخط الآرامي العبري المربع

(١) قاموس الكتاب المقدس .

لقد استعمرت آرام النهرين اسرائيل مدة ثماني سنوات في عهد ملكها كوشان شعتائيم . وبهذا الصدد يصرّح سفر القضاة بأنّ الله غضب على بني اسرائيل فباعهم الى كوشان شعتائيم وظلّوا يتعبّدون له مدة ثماني سنوات حتى أقام الله عتنئيل بن قناز قاضياً وخلّصهم من نفوذ الآراميين (١) .

عبدت آرام النهرين الاله سين وكان له في حرّان معبد كبير جُدّد في عهد الملك الآشوري آشور بانيبال . وربما يكون تارح ابو ابراهيم هو الذي جاء بهذه العبادة من أور الكلدانيين عندما رافق ابنه اليها ، إذ انه كان يتعبّد لهذا الاله (٢) .

---

(١) قضاة ٣
(٢) قاموس الكتاب المقدس

الآراميون في العراق

عندما نتحدث عن الآراميين في التاريخ تتجه انظارنا قبل كل شيء نحو منطقة ما بين النهرين وسورية ، حيث استوطنوا وأقاموا لهم دويلات متعددة ، لعبت دوراً هاماً في تاريخ تلك المنطقة التي تعتبر ولا شك الموطن الثاني لهم . ولكن في الوقت نفسه نجد قبائل آرامية منتشرة على امتداد نهر الفرات الاوسط والاسفل ولا سيما في المنطقة الممتدة ما بين بابل والخليج العربي . والسؤال الذي يتبادر الى الاذهان هنا هو : متى وكيف جاءت هذه القبائل الى العراق ؟

ليس بالامكان تحديد زمان تواجد بعض القبائل الآرامية في العراق بصورة دقيقة لخلو أيدينا من وثائق تاريخية . بيد انه يمكننا ، استناداً الى بعض الاحداث التاريخية ، ومن باب الترجيح لا التأكيد ، ان نقول :

[illegible]
ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : [illegible]

ويستند في ذلك الى [illegible]

١ ـ وجود [illegible] الآراميين (١) .

٢ ـ [illegible] (٢)

---

(١) انظر [illegible]

(٢) العرب واليهود في التاريخ [illegible]

المرحلة الثانية : ويمكن تحديدها ما بين القرون الخامس والحادي عشر ق.م حيث أخذ الآراميون بالظهور كقوم والنزوح عن موطنهم الأم . ففيما اتجه السواد الاعظم منهم نحو الشمال ، اتجهت بعض قبائلهم نحو الجنوب وانتشرت على امتداد نهر الفرات .

المرحلة الثالثة : وبدأت بعد القرن التاسع ق.م عندما احتل الآشوريون الدويلات الآرامية وجلوا قسماً من ابنائها الى هذه المنطقة وسواها من التي كانت تحت سيطرتهم . فقد جلا مثلا شلمناصر ٢٤٠٠ نسمة من ابناء مملكة بيث عديني الى آشور ، ومن المعقول جداً ان يكون هؤلاء قد استوطنوا جنوبي العراق وتمكنوا فيما بعد من تأسيس دويلة حملت نفس اسم دويلتهم الاصلية « بيث عديني » الواقعة في حوض الفرات بأعلى ما بين النهرين .

انتشار الارآميين في العراق

اخذ الآراميون يتغلغلون شيئاً فشيئاً بين سواحل القنوات المحصورة بين دجلة والفرات ، اعتباراً من دور

كاكانزو (جنوبي بغداد) شمالاً وحتى حدود عيلام جنوباً . وكوّنوا شبه دويلات هنا وهناك مستقلة عن دولة بابل الكبرى ، اشهرها : ايتوع ، بيث عديني ، كمبولو ، فقودو ، بيث شيلاني وغيرها . وقد عظم شأنها فيما بعد وتمتعت ببعض النفوذ ثم احكمت السيطرة على بعض المناطق جنوبي بابل حتى أطلق عليها اسم « بلاد آرومو » (١) وقد ناصبت هذه القبائل الآشوريين العداء كرد فعل لما كانوا يلحقون بها من عنت واضطهاد . فلم تتأخر من مساعدة بابل ضد آشور في كثير من الاحيان . من ذلك وقوفها الى جانب مردوخ بلادان لدى اغتصابه عرش بابل بمؤازرة ملك عيلام .

ولقد كان للآراميين مطامع في هذه المنطقة سعوا الى تحقيقها بمختلف الوسائل . فكانوا يغيرون على المدن والقرى البابلية ويعمنون فيها النهب والسلب كلما سنحت لهم الفرصة ، ولا سيما حينما كانت تظهر بوادر الضعف على مملكة بابل نتيجة تغافل ملوكها واهمالهم . وكثيراً ما ساقتهم مطامعهم الى محاولة الاستيلاء على بابل نفسها ؛ ولا سيما في

---

(١) الآراميون

اثناء وجود فتن داخلية اعتاد البابليـــون أن يثيروهـا ضد الآشوريين . وكانوا في مثل هذه الاحوال يستعينـون بملك عيلام . وتفيد إحدى المدونات الآشـورية ان اداد ـ فال ـ ادين الذي تمكن من اغتصاب عرش بابـــل في القرن الحادي عشر ق.م كان آرامياً ، وقد اضطـر ملك آشور آنذاك الى الاعتراف به ومصاهرته كسباً لوده وصداقته .

آراميو العراق في الوثائق الآشورية

ان موقف الآشوريين من الآراميين في العـراق ، هو نفس موقفهم من آرامي ما بـــين النهرين ، وهـو موقف عدائي لكون الآراميين في نظرهم غزاة ومثـــيري قلاقل ، ولذلك رأى الآشوريون ان يتصدوا لهؤلاء الغزاة بكل الوسائل الممكنة . فقد عمل سرجون على تبديـــد شملهم وتفريق صفوفهم ، وحذا حذوه ابنه سنحريب الذي سبى منهم الى آشور في إحدى حملاته عليهم ۲۰۸۰۰ نسمة ، لكنه لم يستطع ان يستأصل شأفتهم من المنطقـة ، فاضطر الى الاغارة عليهم ثانية عام ٦٩١ ق.م وادعى انه « استأصل كل احلامو » ، الا اننا نراهم بعد هذا التاريخ يسرحون

ويسرحون في طول البلاد وعرضها .

وقد جاءت بعض الوثائق الآشورية تكشف عن رأيهم في الآراميين فوصفتهم كتابة تعود الى عهد سنحريب بانهم « الآراميون الضائعون الهاربون والعطاش الى الدم والسرّاق » (١) ، كما اوضحت وثيقة اخرى لسنحريب نفسه في سياق سردها حادثة اغتصاب مردوخ بلادان عرش بابل : ما كان يتصف به الآراميون من القوة والبسالة والرجولة بحيث انهم لا يكترثون لما ينتابهم من النوائب والمصاعب ، بل انهم لا يعرفون للموت معنى ، حيث تقول الوثيقة « لقد تم له ذلك بمساندة الشعوب الكلدانية الموجودة على ضفة نهر المر ، والآراميون الذين كانوا لا يعرفون (الموت) معنى » (٢) .

اشهر الدويلات الآرامية

ولئن ظلّ الآراميون معظم فترة وجودهم في جنوب العراق ، في حالة شبه بدوية متنقلين من منطقة الى أخرى

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) المصدر نفسه .

تبعاً لمستلزمات الحياة والظروف ، غير ان بعض قبائلهم تمكنت من الاستقرار وترسيخ اقدامها في بعض المناطق وتشكيل ما يشبه دويلات يتزعمها رئيس القبيلة . الا ان ما وصل الينا عن تنظيمها السياسي والاقتصادي يسير لا يغني فتيلاً . وأشهر تلك القبائل هي :

١ - ايتوع : وقد احتلت اولاً وادي ديالى الاسفل ، ثم انتشرت حتى الزاب الصغير ، وكان ابناؤها يشكلون مصدر قلق وازعاج للآشوريين ، فيغيرون بين الحين والآخر على المقاطعات المجاورة لهم ويسيطرون عليها ، الا انهم يضطرون الى التراجع تحت ضغط ملوك آشور . فتغلاثفلاصر الثالث شنّ عليهم في السنة الاولى من ملكه حملة واسعة النطاق وأقصاهم عن بلاده وحصرهم في أقصى الجنوب وفرض الجزية عليهم .

٢ - كمبولو : استقرّت هذه القبيلة في القسم الجنوبي من دجلة وعلى شاطئه الشرقي . وقد لعبت دوراً بارزاً في تاريخ بابل عن طريق مؤازرتها ملوك بابل ضد الآشوريين كمؤازرتها مردوخ بلادان زعيم قبيلة بيث ياقين الكلدانية في اغتصابه لعرش بابل في الوقت الذي كان فيه

سرجون ملك آشور منهمكاً في العمل على استتباب الامن في القسم الشمالي من امبراطوريته . فلما تمَّ له ذلك وقد وردت اليه انباء مردوخ بلادان ، اتجه نحو بابل ووجه ضربته الاولى نحو كمبولو واقتحم مدنها الاربع المحصنة وضمها الى احدى المقاطعات الآشورية ، ثم اخذ يطارد فلول القبائل الآرامية الاخرى . ولما دنا من بابل لاذ مردوخ بلادان بالفرار . ويبدو ان قبيلة كمبولو أخلصت الولاء لملوك آشور بعض الوقت ، اذ نجدها تقف الى جانب اسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) في قمعه لحركة عصيان قام بها ابن مردوخ بلادان بمساعدة العيلاميين وبعض القبائل الكلدانية . غير انها عادت فشقَّت عصا الطاعة في عهد آشور بانيبال ، وآزرت ملك عيلام في حملته على كلدو فسهلت مرور جيشه في ديارها . وازاء هذا الموقف المعادي لآشور ، انتقم منها آشور بانيبال فدمر قلعتها المعروفة بـ « شفي - بل » والقى القبض على ابن ملكها وذبحه كالخروف (١) ونقل زعماءها الآخرين الى أربيل حيث مثَّل بهم تمثيلاً فظيعاً وهم احياء . وبذلك وضع نهاية لهذه الدويلة .

---

(١) المصدر نفسه



نصب حجري لعلامة الحدود يشاهد فيه مردوخ بلادان
ملك بابل (٧٢١-٧١١ ق.م) وهو يمنح بعض الأراضي
الى أحد كبار اعوانه، وقد نقشت فوق تاجه المخروط
كتابة تحمل اسم «مردوخ بلادان» ملك بابل الآرامي

٣ - فقودو : استقرت هذه الدويلة في السهل الواقع الى الشمال من منطقة قبيلة كمبولو ، وكانت ضمن القبائل الآرامية التي أخضعها سرجون وضمها الى بلاده إثر قضائه على دويلة كمبولو . ويبدو انها كانت ذات شأن بدليل ما اشار اليه سفر حزقيال النبي عن اهميتها في المنطقة (٢٣ : ٢٣) .

٤ - بيث عديني : وهي من القبائل التي انتشرت في الجهة الغربية من ساحل الخليج العربي . وقد أشرنا الى احتمال نزوح ابنائها من دويلة بيث عديني الواقعة في ما بين النهرين ، او جاء بهم الآشوريون الى هذه المنطقة بصفة أسرى في أعقاب إخضاع مملكتهم ودمجها بآشور . او ان قبيلة بيث عديني تفرعت بالاصل الى فرعين ، اتجه احدهما نحو الشمال فيما اتجه الآخر نحو الجنوب . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الدويلة كثيراً ما اتخذت والقبائل المجاورة موقفاً موحداً ضد آشور ، لذلك لم يكفّ ملوك آشور عن توجيه الضربات اليها . فقد شنّ عليها شلمناصر في جملة قبائل المنطقة حملة عنيفة لوقوفها الى جانب ملك بابل المتمرد عليه ، واعمل فيها النهب والدمار بعد ان

اخضع مردوخ بيلسات ملك بابل (١) وفرض عليها الجزية ، فقدمت له كميات وفيرة من الذهب والفضة والنحاس والحديد والعاج وجلد الفيلة . وهذا ولا ريب مؤشر الى ما كانت تنعم به من الرفاهية والرخاء .

كلدو قبيلة آرامية

لعل ابرز قبيلة آرامية استوطنت جنوبي العـــراق هي قبيلة كلدو او كلدي مؤسسة آخر مملكـة في تاريـخ العراق القديم ، عرفت بالبابلية الثانية أو الحديثة او الكلدانية عام ٦١٢ ق م بزعامة نبوبلاصر . اما كون هذه القبيلة آرامية فأمر يكاد يجمع عليه الباحثون لا سيما وان التوراة تشير الى آراميتها . ذلك بان هذه القبيلة عرفت في العهد القديم باسم « كاسديم » اي الكلدان نسبة الى كاسد بن ناحـور اخي ابراهيم الخليل من امرأته ملكه (٢) . وحيث ان ابراهيم من أسرة آرامية كما عرفنا ، فيكـــون ابن اخيه آرامياً هو الآخر ، وبالتالي تكون قبيلته آرامية .

---

(١) كلدو وآثور مج ١ ص ٤٠

(٢) تكوين ٢٢ : ٢٢

ومن الباحثين العرب الذين أيدوا هـذه الحقيقـة الاستاذ طه باقر الذي يرى انها من القبائل الآرامية الـتي نزحت الى جنوبي العراق من سورية حيث يقول: «اتجهت قبائل اخرى من الآراميين الى الفرات الاوسط والاسفـل ومنها القبيلة التي عرفت باسم «كلدو» او كاسديم كما جاء في التوراة، وكونت في جنوبي العراق عدة مشيخات في الالف الاول ق.م وتمكن أحد زعمائها المسمـى نبوبلاصر ان يؤسس السلالة الكلدانية الشهيرة التى اشتهـر ملكهـا نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) وكانت آخـر حياة البابليين السياسية» (١). اما الاستاذ ابراهيم السامرائي فيجعلها فرعاً من قبيلة آرامية اذ يقول: «ومن الآراميين قبيلة استوطنت في جنوبي العراق، وعرف منها فـيما بعـد الكلدانيون الذين كوّنوا آخر امبراطورية في تاريخ العراق القديم» (٢). وهي في رأي الاستاذ عفيف بهنسي قبيـلة سامية آرامية، فهو يقول: «فلم يحل عام ٦١٦ ق.م حيث سيطرت قبيلة كلدي السامية وهي آرامية ايضـاً على بابـل

(١) مجلة التراث الشعبي، حزيران ١٩٧١
(٢) التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق ص ٢٩

ثم زحف نبوبلاصر على أور واستولى عليها عام ٦١٢ ق.م»(١). ويعتبرها الدكتور احمد سوسه فرعاً من الآراميين معتمداً رأي المؤرخين فيقول: «الكلدانيون هم من القبائل البدوية السامية وقد اشتق اسمهم من قبيلة كلدي، ويعدهم المؤرخون فرعاً من الآراميين، زحفوا من سورية الى جنوبي العراق» (٢).

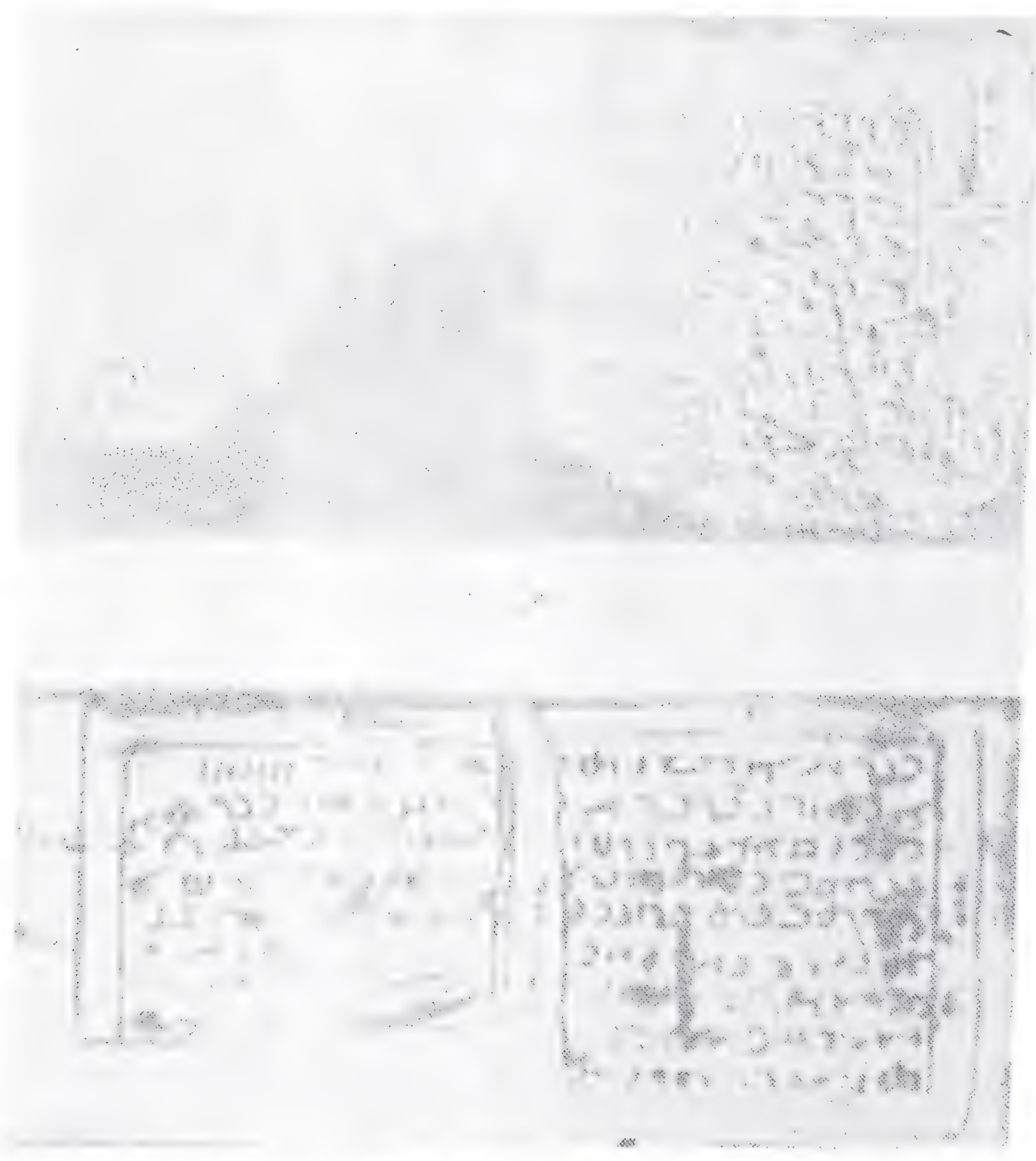
اضمحلال الآراميين وانتعاش لغتهم

ان نجم الآراميين ولئن أفل وانتهت حياتهم السياسية في جنوبي العراق، الا انهم تركوا لغتهم حية مزدهرة غنية فاستخدمت لشتى الاغراض حتى غدت لغة رسمية للامبراطورية الفارسية التي خلفت المملكة الكلدانية ولا سيما في عهد ملكها دارا (٥٢١ - ٤٨٥ ق.م). ولما طويت صفحة اللغة الآرامية في هذه المنطقة، تركت بعض رواسبها في لهجات العراق العامية، ليس فقط في الجنوب حيث تواجد الآراميون بل وفي الشمال ايضاً وبخاصة في منطقة الموصل. وتجاه هذه الظاهرة يبرز أمامنا السؤال

---

(١) مجلة العربي عدد ٨٣ ص ١٢٥
(٢) العرب واليهود في التاريخ ص ٩١

التالي : ترى كيف جاءت اللغة الآرامية الى الموصــل ، والآراميون كما هو معروف استوطنوا جنوبي العراق ؟ هل ان الآشوريين الذين اقتبسوا لغة الآراميين هم الذين تركوا



نقش بيرسيك في أعالي دجلة سنة ٦ م . وهو أقدم أثر اكيد للكتابة السريانية

هذه الرواسب في منطقة الموصل ، ام ان آراميين تواجدوا في المنطقة ؟ .

نقول : ولئن تبنى الآشوريون اللغة الآرامية وتكلموها ، الا انه لا يمكن ان نعزو اليهم فقط وجود رواسب اللغة الآرامية في عامية الموصل ، ذلك بان جماعة من الآراميين تواجدوا في المنطقة فعلاً ، ولكن دون ان يكون لهم اي نفوذ سياسي او تأثير آخر ، حيث جاءوا الى المنطقة بصفة مسبيين او مبعدين . ومهما يكن من أمر ، فقد استقرّت جماعة منهم منطقة نينوى حتى قيل ان الموصل حين فتحها العرب المسلمون في عهد عمر بن الخطاب لم تكن اكثر من محلتين ، يسكن الواحدة قوم من الفرس والاخرى يقطنها آراميون عرفوا بالجرامقة (١) وسمى بعض الكتّاب العرب اللغة الآرامية بالجرمقية نسبة اليهم (٢) . ولقد لفتت هذه التسمية الغريبة انتباه المؤرخين والباحثين فذهبوا في تأويلها مذاهب شتى . فقال فريق ان الجرامقة قوم من العجم كانوا يتكلمون

---

(١) الآثار الآرامية في لغة الموصل العامية للدكتور داود الجلبي — المقدمة .

(٢) قاموس المحيط للفيروزابادي .

الآرامية جاءوا من جنوب بلاد فارس الى الموصل في صدر الاسلام . الا ان ثقات الباحثين انتهوا الى القول بان الجرامقة آراميون فعلاً ، غير انهم اختلفوا في أصل تسميتهم . فمن قائل انهم من ابناء جرموق بن آشـــور بن سام . وذهب آخرون الى انهم من بلاد باجرمي معتبرين ان لفظة جرمق او جرامقة محرفة من كلمة باجرمي او بيث كرماي وهي المنطقة الواقعة جنوبي اربيل حتى كركوك والسليمانية . وقال غيرهم انهم عرب من أصل آرامي او نبطي .

ولدى دراسة هذا الموضوع بصورة دقيقة نجد ان « جرمق » اسم لبلدة او منطقة في بلاد عيلام (عربستان) كما جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي (١) . ولكن كيف الصقت هذه التسمية بالآراميين ؟ نقول : انه من الثابت ان الآشوريين كانوا يطاردون الآراميين في جنوب العراق احياناً كثيرة تخلصاً من مشاكلهم والاضطرابات التي

---

(١) قال ياقوت الحموي « جرمق : بلدة بفارس كثيرة الخصب رخيصة الاسعار كثيرة الاشجار على جادة المفازة » . قال الاصطخري : وفي المفازة على طريق اصبهان الى نيسابور موضع يعرف بالجرمق ، وهو ثلاث قرى وتحيط بها المفازة . وجرمق يسمى سه ده ومعناه الثلاث قرى ، احداها اسمها بيادق والأخرى جرمق والثالثة ارابه (معجم البلدان مج ٣) .

كانوا يثيرونها ، فيضطر هؤلاء الى عبور نهر دجلة واللجوء الى عيلام المجاورة فيقيمون في منطقة جرمق فـــترة من الزمن حتى تهدأ الاحوال وتعود الامور الى طبيعتها فيعودون وتعود معهم موجة الاضطرابات والقلاقل . لذلك عرفـــوا بالجرامقة . ولكي يقطع سنحريب ملك آشـور دابر هـذه الاعمال المخلة بالامن ، أبعد اعداداً غفيرة منهم الى المناطق الشمالية ومنها منطقة باجرمي .

ومن هنا فان ما ذهب اليه قوم من ان جرامقـة الموصل جاءوا من منطقة باجرمي قد يكون صحيحاً من ناحية واحدة ، وهي ان الآراميين الجرامقة نفوا أولاً الى باجرمي ومنها انتقلت جماعات منهـم الى منطقـــة نينوى واستقروا في حصن الموصل الذي كان يعرف بـ « القليعات » . وما يدعم الرأي القائل بأن آرامي الموصل كانوا من القبائل الآرامية التي جاءت من منطقة جرمق ان ابن خـلدون يقرن اسم الجرامقة بسنحريب ملك آشور الذي أتى بهـم الى هذه المنطقة .

تساؤلات لا بُدّ منها

أين انتهى مصير الآراميين ؟ هل ذابوا في الأقوام التي عقبتهم أم لا يزال هناك من يصحّ ان يقال عنهم انهم منحدرون من أصل آرامي ؟

لا غرابة في أن تطرح اليوم مثل هذه التساؤلات عن الآراميين كما تطرح عن غيرهم من الشعوب التي ظهرت على مسرح التاريخ حقبة من الزمن طالت أم قصرت . ولعبت عليه دوراً فعالاً في ناحية أو اخرى ، ثم توارت عنه بانتهاء ذلك الدور . وبمرور الزمن ، وتحت ظروف وعوامل قاهرة فقدت بعض أو جلّ مميزاتها ومقوّمات قوميتها ، حتى غدا أمر تمييزها كشعوب ذات كيان قائم بذاته لا يخلو من صعوبة ، نظراً الى امتزاجها بشعوب أخرى قريبة أو غريبة ، وتبنّيها تقاليد وعادات تلك الشعوب ولغتها ، ثم تشتّتها في بلدان متباعدة متباينة العادات والمشارب ، مختلفة الأديان والمذاهب . إلا ان هذا لا ينفي

بالطبع استمرارية وجودها بشكل أو بآخر .

وإذا ما حاولنا الاجابة على التساؤلات المطروحة اعلاه وسواها من هذا القبيل بشكل علمي موضوعي ، قد لا تكون محاولتنا أفضل من محاولة الذين سبقونا في هذا المضمار ، والتي وقفت عند حدّ معين لم تتعدّه ، وهو إقرار وجود الآراميين وأثرهم البارز في الحضارة البشرية واستمرارية وجودهم مع بعض الصعوبة في تمييزهم . ولكي تكون إجابتنا اكثر دقة وأقرب الى الواقع لا بدّ من دراسة موضوعية للحالة الراهنة لسكان المنطقة التي استوطنها الآراميون من حيث أنسابهم وعناصرهم أولاً ، ومن حيث العناصر التي اعتنقت المسيحية على مذهب السريان ثانياً ، على اعتبار ان القسم الاكبر من الاراميين اعتنقوا المسيحية ودُعوا سرياناً في مطلع العهد المسيحي .

من المسلّم به ان الاغلبية الساحقة من الآراميين ، بعد هجرهم وطنهم الأم ، استوطنوا سورية وأعالي ما بين النهرين ، وظلّوا في هذه المنطقة حتى نهاية تاريخهم السياسي . إلا ان مقوّمات قوميتهم أخذت تختفي شيئاً فشيئاً تحت تأثير الأقوام التي حكمتهم فيما بعد ، ولم يبقَ منها سوى

لغتهم ، حتى ان نعتهم الآرامي استبدل هـو الآخر بالنعت السرياني الذي اقترن بمفهوم ديني صرف . ولعلّ السبب في ذلك يرجع الى ما ذهب اليـه الطيّب الذكر البطريرك مار اغناطيوس يعقوب الثالث من ان اليهود المتنصرين قد رأوا في محرّرهم كورش عام ٥٥٠ ق . م رمزاً الى السيد المسيح المحرّر الأعظم ، لذلك لقبتهم الامم الوثنية بـ « السورسيين » أو سوريين نسبة الى كورش « *Syrus* » (١) .

أما كون لفظة « السريان » تعني الآراميين ذاتهم فأمر لا جدال فيه ، وقد كان مألوفاً منذ القرون المسيحية الاولى . من ذلك ان الترجمة السريانية لانجيل لوقا (أوائل القـرن الثاني) نعتت نعمان قائد جيش برحدد الثاني ملك دمشق الآرامي بـ « السرياني » ، وهـذا يعني ان لفظة « السرياني » في العهد الجديد حلّت محل لفظة « الآرامي » في العهد القديم . واوسابيوس القيصري (القرن الثالث) يسمي برديصان الفيلسوف السرياني المعـروف « برديصان الآرامي » . ومار يعقـوب السروجي (القرن السادس) يصف مار افرام السرياني بأنه « اكليل الامة السريانية » .

---

(١) للمزيد من الايضاح حول هذه التسمية ، راجـع المجـلة البطريركية السنة ١ ص ٢٠

كما يسمّي تلميذاته الرهاويات « آراميات »(١) .

وهنا يبرز أمامنا السؤال التالي : هل ترى ان جميع سكان منطقة الاراميين اليوم هم آراميون أصلاً ؟ والجواب بالنفي طبعاً . ذلك بأنّ أقواماً عديدة سيطرت على المنطقة بعد الآراميين ، وبانتهاء عهدها تخلّفت منها في البلاد فلول وجاليات انصهرت فيما بعد في البوتقة العربية على أثر الفتح العربي الاسلامي . ولهذا فانّ ابناءها يعدّون اليوم عرباً وليس آراميين . وللمزيد من الايضاح نستعرض هنا بعض التطورات التي طرأت على واحدة من الممالك الارامية لنرى أية عناصر تضمّ اليوم ، وعليها نقيس سائر الممالك الارامية ، لأن جميعها اشتركت في المصير الواحد . ولتكن مملكة دمشق نموذجنا باعتبارها كانت أعظم ممالك الآراميين شأناً وقوةً ونفوذاً .

فدمشق ولئن كانت مدينة آرامية ذات شأن كبير ونفوذ قوي فرضته على ممالك أخرى مجاورة آرامية وغير آرامية ، إلاّ اننا لا نستطيع القول ان جميع سكانها اليوم

---

(١) انظر مقدمة قاموس « دليل الراغبين في لغة الآراميين » للمطران يعقوب اوجين منا .

منحدرون من أصل آرامي ، وذلك للاعتبارات التالية :

١ - لقد استوطنت دمشق جاليات من الأقوام الاجنبية التي حكمت المنطقة كما نوّهنا اعلاه ، وظلّت فيها حتى بعد انقضاء حكم أقوامها ، كاليونان والرومان والاتراك وسواهم .

٢ - بعد الفتح العربي أخذت اللغة الآرامية ، وهي البقية الباقية من مقوّمات قومية الآراميين ، تتوارى كلغة أدب وتخاطب ، وحلّت محلّها اللغة العربية ، وسادت المعالم العربية من أخلاق وعادات وتقاليد .

٣ - لقد اعتنق كثير من السريان - الآراميين ، الاسلام خلال الفتح العربي وبعده ، وانصهروا في البوتقة العربية - الاسلامية ، فهجروا لغتهم وتكلّموا العربية ، ففقدوا بذلك طابعهم الآرامي . وبهذا الصدد يقول ابن خلدون : « وهذا ما حمل ثقات المؤرخين الى القول بأنّ أغلب المسلمين في سورية ولبنان ، ليسوا إلاّ من السريان القدماء » (١) .

مما تقدّم يبدو واضحاً أن دمشق الآرامية أصبحت

---

(١) ص ١٤٩

اليوم عربية بلغتها وطابعها وعاداتها ، ولئن لا يرجع جميع سكانها الى أنساب عربية أصيلة .

غير انَّ هذا لا ينفي آرامية قسم من سكان منطقة دمشق ، لا سيما اولئك الذين ما زالوا يتكلَّمون اللغة السريانية ـ الآرامية ، وهم قلة منتشرة في منطقة قلمون لا تتجاوز الثلاث قرى .

لنعد ونطرح السؤال بشكل آخر . إذا كان الآراميون قد اتخذوا تسمية جديدة هي « السريان » في العهد المسيحي ، ترى هل ان جميع الذين يعرفون اليوم باسم « السريان » أو بعبارة أخرى ، الذين ينضوون تحت لواء الكنيسة السريانية بمختلف طوائفها هم أحفاد الآراميين القدماء ؟ . نقول : انه من الثابت ان رسل المسيحية الأوائل كانوا يتكلَّمون اللغة السريانية (الآرامية) ، وقد أذاعوا بشارة الانجيل بين سكان سورية قبل غيرهم ، فعرف الذين آمنوا من الآراميين بالسريان تمييزاً لهم من الآراميين غير المؤمنين . ومن هؤلاء الآراميين المؤمنين تأسَّست الكنيسة السريانية الـتي تجزَّأت فيما بعد الى عدة طوائف سريانية بسبب الخلافات المذهبية المعروفة . فهناك الارثوذكسية والكاثوليكية

والنسطورية والكلدانية والمارونية . وهذه الطوائف كلها حافظت وما تزال على طقوسها وتقاليدها السريانية . هذا من جهة . ومن جهة اخرى ، فان الكنيسة السريانية على اختلاف طوائفها ، كانت لها جولات موفقة في عالم التبشير . فقد نشرت المسيحية بين القبائل العربية كالغساسنة والمناذرة والتغالبة وغيرهم ، وكذلك في آسيا الصغرى وفارس والهند والصين . فصار لها اتباع من مختلف الجنسيات والقوميات دعوا كلهم سرياناً على اعتبار انهم اتباع الكنيسة السريانية (المسيحية) . وعلى سبيل المثال نقول : ان في الهند يوجد اليوم نحو المليونين ممن ينتمون الى الكنيسة السريانية الارثوذكسية بالاضافة الى اتباع بعض الطوائف السريانية الاخرى . ومن هنا نجد ان عناصر غير آرامية دخلت الكنيسة المسيحية السريانية .

لذلك لا نستطيع القول ان جميع الذين يسمون سرياناً هم آراميون أصلاً . ولكن في الوقت نفسه هنالك من لا يتكلمون اللغة السريانية ولا ينتسبون الى اية طائفة او كنيسة سريانية ، لكنهم آراميون أصلاً كالصابئة مثلاً ، الذين ما زالوا يحتفظون باللغة الآرامية كلغة دينية طقسية ولئن يتكلمون اللغة العربية .

وخلاصة القول ان هنالك اليوم قسماً من السريان قد يكونون منحدرين من اصل آرامي ولا سيما اولئك الذين ما زالوا يتكلمون اللغة السريانية ، وآخرون هم سريان مذهباً لانتسابهم الى احدى الكنائس او الطوائف المسيحية السريانية . وهكذا نجد ان كلمة **السريان** هي اكثر شمولية من كلمة **الآراميين** لانها تشمل كل الاقوام الذين آمنوا بالمسيحية على مذهب الكنيسة السريانية ، في حين ان الآرامية لا تشمل سوى عنصر واحد فقط .



ملحق

نص كتابتي كيلامو - منقولة من كتاب « الآراميون »

١ - « أنا كيلامو بن حي ،
حكم كبار على يعودي ،
ولم يفعل شيئاً .
وجاء ياماه ،
ولم يفعل شيئاً .
ثمّ كان أبي « حيا » ،
ولم يفعل شيئاً .
ثمّ جاء أخي شعيل ،
ولم يعمل شيئاً .
وأنا كيلامو بن طما (ت) إحدى زوجات حيا - فعلت
ما لم يفعله (الملوك) السابقون .
وكان بيت أبي محاطاً بملوك أقوياء وكلهم شرعوا يقاتلونني ،

ولكني كنت في يد هؤلاء الملوك بمثابة نار تحرق اللحية .
ومثل نار تلتهم اليد .
وكان ملك الدانونيين قديراً مسلطاً عليّ ،
غير اني استأجرت ضدّه ملك آشور
فرد امرأة فتية عوض خروف ،
ورجلاً عوض ثوب .

٢ - « أنا كيلامو بن حيا ،
جلستُ على عرش أبي
وقدّام الملوك السابقين ،
كان الموشكاب يرودون مثل الكلاب ،
غير اني صرتُ لهذا أباً
وصرت لهذا أماً
ولآخر كنت أخاً . .
ومَن لم يكن قد شاهد رأس خروف
جعلته يملك قطيعاً من الغنم ،
ومَن لم يكن قد رأى رأس ثور ،
جعلته يملك قطيعاً من الحيوانات ،

وعملك فضة ،
وعملك ذهباً .
ومَن لم يكن قد عاين قميصاً منذ صغره ،
في عهدي توشّح بالحرير . . .
وأنا أخذت بيد الموشكاب ،
وهم انقادوا إليَّ ،
كما ينقاد اليتيم الى أمه .
وإذا اعتلى العرش أحد أبنائي من بعدي ،
وعبث بهذه الكتابة ،
لا يحترم بعد الموشكاب بعرير ،
ولا يحترم البعارير موشكاب ،
وإذا كسر أحد هذه الكتابة ،
ليكسر رأسه بعل ـ صمد (إله) كبار ،
وليكسر رأسه بعل ـ حمان (إله) باماه ،
وكذلك ليفعل به ركوب ـ ايل بعل البيت » .

كتابة زكير ملك حماة - منقولة عن « الآراميون »

« النصب الذي أقامه زكير ملك حماه ولعش اكراماً
ل « ايلو - وير » (. . .)

أنا زكير ملك حماه ولعش ، أنا إنسان وضيع ،
لكن بعل - شمايين دعاني ووقف معي ،
وبعل - شمايين ملكني على « حزرك » .
وبرهدد بن حزئيل ملك آرام حشد ضدي ستة عشر ملكاً (؟) :
برهدد وجيشه ،
وبرغوش وجيشه
و (ملك) قي وجيشه ،
وملك عمق وجيشه ،
وملك كركم وجيشه ،
وملك شمأل وجيشه ،
وملك ميليد وجيشه ،
وملك . . . وجيشه ،
وملك . . . وجيشه ،

وسبعة ملوك آخرون وجيوشهم ،
وكل اولئك الملوك حاصروا « حزرك »
وأقاموا سوراً أعلى من سور « حزرك »
وحفروا خندقاً أعمق من خندقها ،
حينئذٍ رفعت يدي الى بعل شمايين ،
وبعل شمايين أجابني ،
وتكلّم معي بعل شمايين بواسطة الرواة والعرافين (؟)
وقال لي بعل شمايين : لا تخف ،
لأني أنا الذي أقمتك ملكاً ،
وأنا سأقف معك ،
وأنا سأخلصك ،
من كل هؤلاء الذين أقاموا الحصار ضدك . . .

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

١ ـ السريان وحرب الايقونات	المطران غريغوريوس يوحنا ابراهيم
٢ ـ أهل الكهف في المصادر السريانية	البطريرك اغناطيوس زكا الاول عيواص
٣ ـ أدب الرسالة عند السريان	المطران غريغوريوس بولس بهنام
٤ ـ الممالك الآرامية	المطران غريغوريوس صليبا شمعون
٥ ـ القيامة العامة في المصادر السريانية	المطران سويريوس اسحق ساكا

﴿ تحت الطبع ﴾

عقيدة التجسّد الالهي
في الكنيسة السريانية الارثوذكسية

البطريرك اغناطيوس زكا الأول عيواص

١٥٨

